دم أزرق

محمد بن سيف الرحبي

كاتب وروائي من سلطنة عمان

الطبعة الأولى: 2017 (مسقط)

الناشر:

بيت الغشام
للصحافة والنشر والترجمة والإعلان

(سلطنة عُمان – مسقط)

للتواصل:
alghshamoman@gmail.com
هاتف: 24591646 - 99260386
ص.ب: 2068 الرمز البريدي: 133
www.altakween.com

التصميم الداخلي: سارة بنت سعيد العلوية

تصميم الغلاف: منيرة بنت علي الهطالية

حقوق النشر محفوظة ولا يحق
إعادة الطباعة أو النسخ
إلا بإذن كتابي من المؤسسة

رقم الإيدا ع: 563 / 2016
رقم الإيداع الدولي:(ISBN)
978-99969-2-077-6

دم أزرق

محمد بن سيف الرحبي

الفهرس

سبع إطلالات على شرفة شهرزاد............ ٥

حكم علينا الهوى............................ ١٥

الأرملة.. ١٩

تساقط... ٢٥

الأستاذ عارف................................ ٣١

الباب... ٣٧

العابية.......................................٤١

الذي اشتعل.. الذي انطفأ................ ٤٧

عيش برخ..................................... ٥٣

صلاة الوالي................................. ٥٩

ما حكاه الراوي عن سعادة الحمار ٦٥

دم أزرق......................................٧٣

قصص قصيرة جدًا ٧٩

سبع إطلالات
على شرفة شهرزاد

إطلالة أولى:

.. وإذ ارتدى الليل سترته الثقيلة، وأخذ النعاس من السمّار مأخذه..

قالت له: انض ثوبي عني.

ثقيلة هذه الحكاية يا مولاي الملك السعيد، مولاي الزوج اقترب لأسعدك أكثر.

على السرير ثمة حكاية.. إروها لجسدي.

من يعيد تشكيل الليالي إذا لم نطعمها حكاياتنا الخاصة، لا حكايات الآخرين؟!

تثاءب شهريار، تثاءبت الحكايات..

.. أما الديك فامتنع عن الصياح، منصتا لكلام مباح، تلفتت شهرزاد، وأغمضت أعين الحلم.

"بلغني أيها الملك السعيد" ما لم يبلغك..

وبلغك ما لم يبلغني.

هذه سانحتي لأتلو عليك ما تيسر من خوفي، أداري سوءته بخيوط الحكاية تلو الحكاية، بعضي يلتحف بعضي مخافة أن تشقّ عليّ أخيلتي فتضنّ بما قد بلغني.

إطلالة ثانية:

"يا ليل الصب"..

يا ليل الحكاية، والليالي المتناسلة..

خذ إليك شهريار الصبابات، النساء المتعلقات كحبات مسبحة بين أصابعه، دمهن المسفوك على مذبح ذكورته المفجوعة.

غنّ، أوتارك بين أصابعك، حرّك النغم جليّا على شفاه الريح حولك:

لا تنض الثوب عن الجسد الغريب، عيناك في شفاه الأنثى، لتروي، وجسدها لا يستحق الرواية.

الشفاه المتداعية بالكلمات تسكبها أردية تؤخر زحف السيف على الأعناق، لم تخلق للقبل..

مولاي الملك، على الشفاه جمر، في الصدر نار..

وفي المآقي بكاء ودم.

طلّ من فوق شرفة أجفاني لتراني، كما أنا: ناري وبكائي ودمي، اندس في عيني لتبصرني، ببصرك وبصيرتك.

إطلالة ثالثة:

تثاءب السيّاف، فالأعناق كفّت عن الانقسام، بعضها مع رأس متدحرج، بعضها مع جسد متهاو.

ينهض من غفوته، يترقب أمر مولاه الملك، يلتفت إلى شهرزاد، يتضاعف حنقه عليها..

عنقها مغر، للسيف أو للشفاه كبرياؤك واستطالتك؟!

حرّك السيّاف جفنه، تعب من الانتظار، ودّ لو يقطع عنق الحكاية، وراء قطعها أعناق نساء تتكشف ليجري حدّ السيف عليها، علّمته الأعناق شهوة الاختلاف، الأنثى أجمل بدون رأس، والشفاه لها ألق شبقي إذ تتدحرج مع رأس وحيد يترك جسده؟!، أيهما يكون الجسد، أيهما الأنثى؟!، الجزءان المفارقان لتماسكهما، حيث لا حياة لأحدهما دون الآخر.

يتحسس السياف، عنق امرأته، يطوف على أكثر من عنق في بيته، مثنى وثلاث ورباع وما ملكت يمينه القابضة على جمر السيف، لا يتذكر شيئا من ليالي القصر، يعود بائسا ووحيدا، يضاجع له ما تيسر، وينام كطفل، ويستيقظ الصباح التالي كفحل.

إطلالة رابعة:

صرخت شهرزاد فما غادر الصوت قعر روحها، في ليالي الحكايات أنضت الأثواب عن أجساد جميلات، أميرات، ساحرات، لكنها ما استطاعت ليلة أن تمارس هذا الفعل مع جسدها، كأن الثوب محبوك بخيوط الحكاية..
وشهريار لا يرى سوى جسد الحكاية إذ ترفع يديها مستسلمة لإغواء البوح.

في عزلتها النهارية تأتيها أخيلة، تتلظى بجمر التمنّي، لو أنها تقف أمام شهريار، تحكي له حكايتها..

جئت يا مولاي الملك السعيد إلى دنياي وفي فمي حكاية حنّكتني بها أمي، قالت لي أمي اتق نار جسدك حتى لا يكون حكاية، لا تثقي بالغريب مهما بدت حكاياته مغوية عن أمسه وغده، يوم أن كبرت قليلا قالت لي ضاربة الودع أن جسدي سيكون لملك، لم تكمل لي بقية الإشارة، ربما لسيف يأمر به.

لليل مواعيد الغرام، وجمر التلظي، لكنك مولاي تعطي الليل، وحتى مطلع الفجر، للحكاية وحدها، جسدي حكاية نارية ستنسيك نار انتقامك..
لن تحتاج إلى صياح الديك لتكف جمراته عن الاصطلاء، ولا القمر الساهر في العلية يترقب طلوع الصباح ليتلاشى ضوؤه.. لجسدي ضوء قدّ من عشق، فأطل مكوثك، ودع لساني يستريح دون فرط الحكاية، خذه إليك تشعل به داخلك إذ يلتقي اللسانان فيحكيان كيفما أرادا.

فتش في زفيري عن شهيق..

واصعد مع شهيقي نحو زفيرك.

إطلالة خامسة:

أيها السياف..

والعينان تنظران بفزع إليك.

على حدّ سيفك حكايات خوف ودم..

ونساء يربطن سرّة الليل علّ الليل يتنازل عن صخبه..

ليس لك إلا سغب الانتظار..

سيفك غارس للموت حيث يأمر مولاك.

ليس لك حق الاشتهاء..

والأجساد تضيء درب النهايات.

.. وشهريار لا ينضي ثوب أنثاه الأخيرة، يترقب نضوب الحكايات من العنق الصاعد بقصصه، تسيل على لسان شهرزاد عسلا مصفى، كلما شرب منه أكثر زاد إحساسه بالعطش، والحكايات ألقت بقانونها، لا تكون إلا مع عتمة الليل، تذوب إذ يصعد الصباح مع شمس النهار..

يذهب كل منهم إلى مضجعه..

شهريار مبلل بالحكاية يرتجي ليلا تاليا..

شهرزاد تتحسس عنقها ترصف درب الحكايات تحاذر إيماءة الملك للسيّاف، عنق آخر يطير تتبعه أعناق نساء.

والسيّاف يكاد ينسى لعبة الموت..

وهناك، في المسافات، قريبها وبعيدها، رائحة خيانة، تفجّر جسد أنثى ليهب جمره دفئا لعبد من عبيد القصر، والملوك قد تخون، لكنها لا تخان.

والقصور عبيد أو جوارٍ.

حيث الملك السعيد يترقب ما بلغ شهرزاده من أحاديث الشرق والغرب، جوارٍ وغلمان، وسحرة ومردة..

لا يسأل شهريار الراوية عمّن أبلغها كل ذلك!

إطلالة سادسة:

تفيض الليالي عن ألفها ..لتكتب النهاية في ليلة فائضة..

في الليلة الألف هدأ بركان الدم في قلب شهريار، ألف ليلة يا مولاي الملك السعيد، لكن الديك غافل الجميع، والحكاية لم تنته.. صاح ليأتي بالصباح، نسي الملك لعبة الأعناق، في ليلته الفائضة سمع تكملة الحكاية الأخيرة..

وأخيرا، نضى الثوب.. حتى اعتاد.

في حضرة النسيان يتصاعد ضوء الجسد، لا شيء قادر على إخفائه..

الحكايات إبر للذاكرة، الجسد مقصلة، ومنجاة.. الجسد كالحكاية.. الحكاية لها جسد أيضا..

ولكل جسد حكايته.

إطلالة سابعة:

يا سيدي،
سيد روحي..
يا سيد جسدي
من قال لك أني تحررت
واني انتصرت
وأني.. وأني..وأني؟
اقترب على سرير الحكاية
قاربني.. أكن قاربك.
نهرك تعبره دون ظمأ.
على ضفتيه لن ترى إلاي..

انا الشجرة الوحيدة على الضفتين.. الطائر الوحيد يرفرف في سرب من الطيور كلها تبدو لك أنا، الورود، الأعشاب، جميعها واحدة..

أنا وردتك، عشبتك، ضفتك، شجرتك، طائرك...

أنا.. على طرف الرغبة.. أنت.

يا ملكي الوحيد، أنا مملكتك الوحيدة، سأتكرر أمامك كلما شاغبك جوع الملوك لأكثر من مملكة، كل الأجساد سأصير لك، إنك لا تبتغي سوى أجساد الممالك، أرواحها لن تستبيحها، إنك يا مولاي الملك السعيد قد تمشي على أرض هي ليست لك، لكنك لن تحملها أينما ولّيت.

سأغسل من فمك طعم الخيانة، النساء لا يتشابهن.. وأنا لا أشبه إلا.. شهرزاد.

في الليلة الثانية بعد الألف: انتهت كل الحكايات، لتبدأ حكايتنا، شهرزاد وشهريار.

حكم علينا الهوى

لم تفطن أنه فتح الباب،سحب قدميه المتعبتين إلى الصالة..

لم تنتبه أنه نظر إليها بوجل كالذي اعتادته منذ أن ضبطها تستمع للمرة الأولى لعبدالحليم حافظ وأم كلثوم.

فاتها أن تزن خطواتها، أن تضبطها على خطواته تماما، حين تستمع، وحين تردد كلمات الأغنيات، تذوب كالسحر عبر حنجرتها التي أحب انسيابات الصوت منها في اللقاء الأول..

خلع دشداشته، وحين علّقها مالت الشمّاعة بما تراكم عليها من ملابس، لكن صوت أم كلثوم كان شجيا، أكثر من قدرتها على أن تنظر، ولو بطرف عينها، نحو القادم عبر الباب، والعابر للصالة باتجاه الغرفة، والذي أنهى طقوس تغيير ملابسه، وتمدّد في عالمه، باحثا عن دفقة عطر من وردة أيبست المقادير وريقاتها.

كان الصوت أشد ما يكون في شجنه، فوق قدرته على أن يدير سمعه إلا للعاصفة في داخله، ويمضي نحوها بثبات، متواطئا معها لتقتلع داخله..

قال لها: لم تعودي أنت.

وأجابته: ولم تعد أنت.

يختصران المسافة بين زمنين حلا على قلبيهما في مفردات قليلة، كماء ينبجس بصبر بارد من قوالب جليد يتراكم الشتاء عليها ثقيلا.. لا يتذكران متى قالاها أول مرة، ولا كم مرة، ولا آخر مرة.

قال: صوتك فقد إحساسه.

وأجابت: صوتي أو إحساسك؟!

لكنها المسؤوليات يا آمنة، كبرت على ظهري، فقدت الشاب الذي يمتلك وقته..

تسمعه، الكلام المكرر، وتقول له ذات الكلام المكرر أيضا: استقل.

وتكرر عليه: استقلت من كل شيء لأجلك، فلتستقل من بعض الأشياء لأجلي، أو لنقل من أجلنا جميعا.

وينتفض في كل مرة، الريالات في حساباته البنكية تحولت عشرات الآلاف، الغرفة الصغيرة في بيت والده كبرت فيلا ضخمة في مرتفعات بوشر، الكورولا البائسة تتحشرج في المسافة بين مقر عمله في الرسيل ومنزله أصبحت شرخا قديما في حائط الأمس..

قاوم فعل الارتعاش في أصابعه، وحاول أن يسدّ الصوت دون الوصول إلى أذنيه، ينتبه للمرأة على كرسيها الهزاز يعود للأمام والخلف عدة مرات، كرسيه لا يهتز، ويسير باتجاه واحد، ولا يعود للخلف.

في كرسيها كانت تمضي بالصوت إلى آخر نقطة في الاهتزاز، تقارب السقوط مندفعة إلى الأمام، وجهها يمضي نحو أبعد نقطة قبل أن يصطدم بكل شيء أمامه، وفي العودة للخلف لا تدري أي هاوية تطيح بها، الموسيقى تشتعل، ويندفع صوت أم كلثوم يقارب وجعها، تستعيده أو تقاومه.. أو تقاربه من قلبها أكثر.

- لكنك لم تعد أنت..
- نعم، لأني كبرت..
- كبرت أنت، وصغرت مشاعرنا.
- تضخّمين الأمر.
- لأن وحدتي تضخّمت..
- معك الأولاد.

- ليسوا.. كأنت.

- كوني معهم.

- لن يكونوا قريبين مني.. كحاجتي إليك.. والفراغ ما ألعنه.

- املئي وقتك بشيء.

- لا يشبه ذلك الامتلاء أي شيء.. ولن أراهن على شيء، انهزمت..

وتنقطع المفردات عن مساءلات المرحلة، يقول إنها مرحلة ضرورية، «هبّت رياحك فاغتنمها»، ويمضي في الاغتنام، ريثما تصاب الرياح بالسكون، حينها «كوّنت نفسي» كما يردّ عليها.. ويردد.

باقات الورد لا تشبه تلك الوردة اليتيمة التي أهداها إياها أول مرة.. رأتها حدائق الكون تختصرها وردة حمراء طرية في عودها الأخضر، حتى أوراق الغصن عدّتها ورقة ورقة، العبق الصاعد كموسيقى تتسلل بخفاء لذيذ إلى عمقها..

تكدّس الورد حواليها، في زوايا الفيلا الفخمة.. لكنه فقد رائحته حيثما غادرته موسيقى مشاعرهما.

ارتدى دشداشته مرة أخرى، سحب حقيبة سفره بخفّة لم تسمع صوتها، حيث صوت أم كلثوم يرجف قلبها، الجمر يتلاقى مع الجمر فيتحول إلى ندف من الثلج بياضا، وفي يديها فنجان قهوة، تحتضنه بعمق.. أبواب القلب تتقاذفها الريح.. زوابع لا تستقر على حال، تفتح بابا ينغلق آخر، تساءلت: كيف تستطيع أن تغلق بابا، هل يمكنها أن تفتح غيره؟!

لم تسمع صوته حينما.. خرج.

غالب الظن أنه لم يغلق الباب جيدا.

الأرملة

ليس بوسعها إلا أن تبكي، يحاصرها الفراغ من زواياها مجتمعة، أدمنت تناول مسكّنات الحزن الباقي معها في اتساعات البيت الفخم..

قاومت حضوره قدر الإمكان، ولا تفهم لماذا كل هذا البكاء، مع أنها حذفته من ذاكرتها منذ سنوات عبرتهما، طويلة تبدو، شاقة ومؤلمة

هل تمنّته أن يموت؟

راوغت نفسها مخاتلة السؤال، اجتهدت أن لا تنظر إلى عينيها في المرآة، لا ترغب في استعادة لحظات عصية على النسيان، تمنت فيها لو يختفي من هذا الوجود، لكن الموت لم يخطر على بالها كسبب لغيابه.. عن ذاكرتها على الأقل.

في زمن ما كان أولادها حولها، ضحكاتهم وضجيجهم وتفاصيلهم الجميلة أو الضاغطة على أعصابها، ما حاجتها لهذا الرجل الغادر بحلمها؟! وعندما غادرها، غادرها هي لا البيت الذي بقي يأتيه كيفما أراد من باب آخر، سبعة أبناء يملأون كل الفراغات، أربع بنات وثلاثة ذكور، لكن القدر باغتها بما هو أقسى من قدرتها على التوقع بسنوات ضوئية، كبرت البنات وتوزعن على بيوت أزواج ومقاعد دراسة خارجية، وهكذا فعل خالد وحسام وأنور، أنور الذي اعتقدت أنه سيبقى معها الرجل الذي تستند عليه ارتحل مع زوجته الفلبينية، لا تدري كيف حصل كل ذلك من طفلها العشريني المدلل، لكنها

تلقي بالمسؤولية على زوج غادر مكانه منذ سنوات، ولم تبال، ولم يبال!

يلحّ بحضوره عليها كأنما لم يفترقا لحظة، تذكّرته بسنوات الحب الأولى، توقفت ذاكرتها عند تلك السنوات الخمس، وقليلا من سنة سادسة، لا ترغب في مغادرتها، الراحل لم يعش أكثر من ذلك، هكذا أحسّته في لحظة شوق غريبة صحت معها هذا الصباح، استيقظت بشعور أنها وحيدة، وأنها تحتاجه في لحظة فارقة في تاريخهما، رغم أنه لم يعد ممكنا استعادة اللحظة أو التاريخ بينهما.

تغالب انكسارها أمام انثيالات الأشياء من حولها، قاومته حينما كان معها، وبعد أن عاشا على سكّتين منفصلتين رغم السقف الواحد، غيابه هذه المرة بمرارة مختلفة، تختلف عن يوم أن وصفت ما بينهما على أنه يشبه مذاق القهوة، نحتاجها بدون سكّر غالبا، تجرّعت قهوتها السوداء بالغة المرارة بدون احتمال لوجود مكعبات بيضاء تغيّر اللون والطعم يمكن طلبها في أي وقت، كأنها شعرت فجأة بموت أمل لم تره سابقا.. قد يجسّر المسافة بينهما رغم اتساعها.

سنوات طوال عاشها كزائر، في غرفة الملحق تمسّك بآخر حضور ممكن له في بيت فخم، تخيّله جنّته الموعودة، لكن الجليد تجمّد فوق قدرة المشاعر على إذابته ماء صالحا لدوران الحياة في شرايين المكان، أدارت مقبض الباب، ودلفت بخطوات مرتبكة، مسحت سريعا مشهد الفراش وبقية الفوضى، تذكرت فجأة لو أن أنثى أخرى غادر إليها، عشا بديلا وجديدا يرضى برائحة السمك، النقود لا تحمل بالضرورة تلك الرائحة التي تخيلتها سنوات إثر سنوات، بحثت في أدراجه عن رائحة أنثى، في ثيابه عن رائحته، في ألبوم صوره عن صورتها.

في حياته لم تفتش عن أنثى تترك بقايا عطرها على ثيابه، في لحظتها تلك ترغب في إدانته بما يكفي لمسكّن جديد لحزنها.

لم تجد إلا فراغات، كأنما أبقاها لها، تمشي عليها وحيدة، تقفز بأقدام واجفة، العمر الذي يعيدنا إلى اكتشاف ما حولنا من جديد، كواقع في بئر يدرك متأخرا أنه في طريقه إلى قاع ليس بوسعه أن يراه، أو يحدس بما يصيبه لحظة ملامسته للقعر الذي يبدو آتيا لا محالة.

ذات حين مضى حلمت أن تختال كأميرة مستلّة من حكايات قديمة في فيلّا ضخمة باعتبارها زوجة الرجل المهم، وجدت الرجل، وأصبح ثريا وجاء لها بفيلا أكبر من حلمها، لكنه لم يصبح مسؤولا مهمّا كما تريد، حملته لحظة فارقة إلى أن يكون بائع أسماك يعرف كيف يعود إلى البيت يوميا براتب موظف كما لو أنه توظف بشهادته في أحد مصانع الرسيل الصناعية، جاء إليها بحلمها، فرحت، ورأت نظرات الغيرة والحسد في وجوه كثيرات، قريبات وصديقات وجارات، لكنها بقيت زوجة بائع السمك، الفرح المبهر يتلاشى بعد حين، تنهض دويبّات الأرض تقرض البهجة سريعا، رائحة السمك تعيدها إلى مربع حلم لا يغني عنه شيء.

توسعت تجارته، عرفته بحارًا في الشمال والجنوب، وبرّادات تحمل اسم شركته، وحركة على امتداد الساعة يقطعها لمتابعة متطلبات الرزق وهو ينساب وفيرا، لكنها افتقدته، ومعه روح المسؤول الحكومي الذي كان حلمها أن يكون، تقول له: على كرسي الحكومة ستأتي بالرزق الوفير والفخر، قريتنا لا تحترم إلاهم، تبقى في نظرهم بائع سمك، قاطعها: أنا رجل أعمال صاحب شركة أسماك، لا أبيع سمكًا في "عرصة".

لم تقتنع، ولم يقتنع..

أدرك سرّ صنعته، عرف من أين يأتي بالسمك الأرخص، وأين يبيعه بالسعر الأعلى، فهم السوق كأنه يقرؤه في دفتر حفظه كما يفعل في أيام الشهادة الثانوية على أيامه، أنهاها متفوقا، لكن لحظته الفارقة بدأت بتجربة صيفية مع عمل يكسب معه، عمل طوال اليوم، وفي أيام تالية دفع لسائق سيارة شحن صغيرة مبلغا جيدا ليذهب إلى البحر "الحدري"، ملأ ثلاجتها الصغيرة بكل ما جمعه خلال أسبوع من تقطيع الأسماك وصفقات صغيرة قام بها بعد أن يحين موعد ذهاب بائع مستعجل إلى بيته.

يدين للقدر والحظ السعيد ودعاء أمه، والتقاها في لحظة قدر أخرى، معه حظه السعيد ودعاء أمه أيضا، لا يعرف كيف وافقت عليه، ولا هي تعرف كيف أجابت بنعم، لكنها راهنت على الأيام، بائع السمك لن يبقى طويلا في مهنته، سيهجرها حتما حينما تجري النقود بين يديه، سيفكّر في وظيفة حكومية تليق به أمام المجتمع، سيتركها كما يفعل غيره.

لكنه لم يفعل..

قالت له: ترشّح لمجلس الشورى، المعلمات في المدرسة يعرفنني بأني زوجة بائع السمك، صورتك القديمة في "العرصة" بقيت محفورة في ذاكرتهن..

لكنه رفض أن يكون إلا ما يريد.. "ألا تخشين أن يقال إن بائع السمك وصل مجلس الشورى؟!"

بقيت تتحيّن الفرص للضغط عليه، تقاطر الأبناء من رحمها واحدا إثر آخر، قالت إنها ستبقى معه من أجل الأولاد، وأنها لا تطيق رائحة السمك، ولا حتى دخوله البيت بتلك الرائحة، رغم محبتها الطاغية للمأكولات البحرية.

أطلّت لحظة ابتسام الشاب الوسيم عليها في صورة يحيط بها إطار قديم،

استخرجتها بعد سنوات طوال من ركنها أسفل الدولاب، وضعتها بجانب سريرها الجديد، بقيت السنوات الأخيرة تنام وحدها فيه، أحضرت واحدا فخما، لم يشعر برغبته أن يشاركها فيه، ولا هي أرادته أن يأتي إليها، "مهما صببت من عطر العود على ملابسك ويديك لن تخفي تلك الرائحة الكريهة".

جاءتها الجملة مستعادة، وقعت على روحها، بكت بصوت عال، ولم يكن معها في البيت المتسع من يسمع انتحابها، سوى جدران صارت قريبة حد الاصطكاك رغم الأمتار الفارقة بينها!

تساقط

قيل لي "اركض"، وركضت..
وكانت الساق تدفع بالساق إلى أقصى حركتها.
اجتزت ساقية الفلج في غمضة خوف، قفزت، كعجل مندفع لا يلوي على شيء ركضت وقفزت، وأنا أسمع صوته يدفعني أكثر، "اركض"، لم أتبيّن من كان وراءنا، لكني أحس لهيب صوته يصرخ في أذنيّ، حرائق سوطه تندفع في جسدي..

سألني والدي بغضب يحاول حبسه قبل اندفاع الخيزران في يده على الجسد الغض: هل صحيح أنكم قطفتم لمباة ود حمد؟
شرحت له باكيا ما فعلته الريح في غصنها المثقل بثماره، تهاوى فأصبح ما جادت به الريح لنا، هكذا هو شرع الطفولة يا أبتِ، ما يتساقط نحو الأرض حق للاقطه.
لكني تساقطت وجعا إذ السوط يضع أبجديته على جسدي، أينما شاء، تحررت من الألم بعد أيام، ولم يزل مذاق الأمبا في فمي.

كانت ساقية الفلج أمامي، الساقان لا يستجيبان لكلمة "اركض"، الذاكرة أوهى من أن تتلقفها، وعندما تلبّسني الماضي العتيق حاولت أن أقفز المسافة بين جدولي الساقية، القدم اليمنى تركت شقيقتها اليسرى باتجاه الجدول الاسمنتي الآخر لكن خانتها مترددة، وبقيت متعلقة لحظة فوق الماء فهوى الجسد مترنحا، وكانت اليدان تدفعان القنطرة تمسكا بالحياة..

يقاوم جسدي اندفاع الماء تحت القنطرة، وفاض على جدولي الساقية، قاومت وجعي وسقوطي، للماء صوت، وللحنين سوط، ربما بكيت، لم أتبين الأمر جيدا حيث الماء يغمر الوجه، يمنعني حتى من النظر إلى لمباة ود حمد، لم تكن في مكانها، سنوات تيبست فيها جذورها، تساقطت ركنة ركنة، وتساقطنا سويا.

في الطفولة انسللت من تحت القنطرة جيئة وذهابا، لكن جسدي يكاد يفرّ مني لينسلّ وقد تساقط جذعه.

سمعت صوتا بلكنة غريبة يقول لمن يسمعه، ولا أراه، "اركض".. وسمعت وقع أقدام تتباعد، هدأ صوت الماء كالذي سمعته في زمن ما، قريب / بعيد، أين ذهبت القنطرة؟ لا أدري، لكني شعرت ببضع أياد تحملني، لغط لغة تخطّ على سمعي كلمات لا أفهمها، لم يعبر الدرب إلى سقوطي إلا هؤلاء الغرباء، تبينت أنهم سحبوني من تحت القنطرة الإسمنتية بعد أن خارت يداي عجزا تدافعان عن انجرافي أسفلها.. لم يعد بوسعي أن أبكي، لا يليق بالرجال البكاء في حضرة الغرباء.

قلت لراشد ونحن نسير بسيارته البيك اب في وادي منصح أني أعرف الجبال حولنا، سرتها أتبع جدتي تحمل الخباط على رأسها، كانت سيارته تندفع في تراب الطريق مثيرة زوابع الغبار خلفها، لم يجبني راشد، فتى لم يبلغ سن الكلام بعد، تلقّف الحديث من والدي، وغالبت صمتي كثيرا، لكني أتذكر البيك اب، تركتها تبلع الشارع وأغذّ السير راكضا وراء جدتي، تقول لي "اركض" حينما أخرج عن نص الدرب الذي صنعه تواتر الأقدام، لو أني سرت بمحاذاة ذلك الدرب، مع مرور الوقت كنت صنعت دربي، صاحت

بي "اركض" وركضت، مع أن الشوك ينغرس في قدمي الحافيتين، وكنت أسحبه بقوة وسرعة أراوغ الألم أن يبقى، والخوف أن يترسخ، وأركض باتجاه الدرب الذي سارت عليه جدتي.

في غيبوبة مارقة بين الصحو واللاصحو تنشقت غبار سيارة البيك اب في وادي منصح، راشد يضع يده على فمي يقول لي "لا تتكلم"، ما زلت الصغير يتعلق بسيارته، غمرتني أكثر من سبعين عاما دفعة واحدة، قاومت لكي أبكي فقط، لا حيلة لي بالصراخ، ما أجمل أن نبكي أنفسنا، ولو في لحظة غيبوبة تسير بين جدولي ساقية العمر.

في الليل كان يأتيني صوت بكاء مر وضجيج توجع، قالت جدتي إن "الليل ليس لنا" على جدول هذه الساقية رأى شامس جنازة جن، وتخيلتهم يمضون بها يبحثون عن قبر يشبه قبري.

رأيتني أتكئُ على سبعين جرفا، كلها تتهاوى..

سمعته يقول لجدتي هذا حفيدك يا زيانة، يسير فوق التراب، وذلك ابنك غطّاه التراب، وهذا وذلك كل نخيلك موجوع لأنك غبت، ولأنه غاب، ضناك الذي تعرفه كل نخلة كما تعرفينها، يتكئ على وسادة مخملية لعل عامله البنجالي يأتيه بكف رطب يلقيه على وجهه فيرتدّ بصيرا.

رأيتني أفتح قبري، صلبة تربته، كم من عروق النخيل تداخلت، قطعت الكثير من الجذور لكن الأرض صلبة، وكلما هممت بسحب عرق بدا لي منغمسا في قعرها، وهنت يداي تسحبان وقبري لا يتسع لجسدي بعد، أريده قبرا فسيحا قريبا من نخل أبي وجدّي، راقبني هارون، البنجالي، وقال هات عنك أيها "الشايب"، وكان يسحب العروق بقوة، وكانت عروقي تنسحب من جسدي، حتى خلتني متّ، مع أني أتنفس رائحة كل هذه النخيل من حولي.

رأيتها زيانة، جدتي، تحلب بقرتها صباحا، ابنها (والدي) يضرب بحبل الطلوع نخلة فرض تطل على "الدرس" حيث تدور البقرة على عمود من شجرة ليمون، يلقي أبي العسقة تلو العسقة، وكنت أنفضها ليتساقط تمرها بحماسة من يريد إنجاز فرضه بأكبر سرعة ممكنة، تتعب طفولتي ولا يتعب أبي، والحليب يختلط بالماء تمخضه جدتي لبنا، وتتكوّن الدهانة تتراكم قطعا بالغة الصغر فتجمعها زيانة بيديها، تضعها مع دهانة الأمس وما قبله، تطلب الممرضة مني غسل يدي قبل تناول الطعام، أراني أزيح الذباب وما تساقط من أصابع جدتي المنغمسة تسحب الدهانة، أبتسم، وتخالني الممرضة أبتسم لها، كأنها ترى شقاوة معتّقة تتلألأ كما الدهانة في صفرية اللبن.

- تعرفي زيانة؟

- من زيانة؟ ممرضة أو أحد من أهلك؟

- جدتي.

ضحكت، ومضت تضحك.. وغالبت دموعي، زيانة تركتني كأول المنسحبين من حولي، لم تسقني اللبن هذا الصباح، ما يأتوني به لا يشبه لبن زيانة أبدا أبدا.

أراني أضع تمرة الفرض في إناء اللبن، تصرخ جدتي محتجة، لكني أمصّ التمرة وأضحك، وتراني الممرضة أبتسم، فتكاد تغالب دمعها.

يهبط جدي من نخلته، يهبط أبي من نخلة أخرى، وأعجز أن أنزل قدمي من سرير أبيض، تسألني الممرضة بابتسامة طفولية: وين رايح جدي؟!

أشعر أني شخت كثيرا، في صوتها انسحب العمر مئات السنين، ولم أر

قبري، ولا بقرة جدتي ينز الحليب من ضرعها، أصابعها تنغمس في الخلطة العجيبة تخدع العجل المولود يشرب منه مقابل أن يترك ضرع أمه لنا، أصابعها لا تشبه أبدا، أبدا، أصابع الممرضة الضئيلة وهي ترتدي قفازها الناعم كلما لامست يدي تدفع إبرة أخرى في خشونته.

كانت الساقية تحت مرمى قدمي إذ أقفز لكني لم أفطن إلى عجزهما عن قياس المسافة جيدا بين الضفتين، لذلك سقطت، حساب المسافات يختلف بين زمن وآخر، أمامي دكان خلفان بن عبدالله، بداية السوق، انتبهت لنفسي أنني أهذي، تساقطت الجدران ومعها غالبية الباعة والمشترين، الماء يجري في ذات الساقية، غير آبه، لا تتذكر السواقي من قفز في غمضة خوف ومن سقط في لحظة نزق، كانت الممرضة تردد من بين كلمات لا أتبينها في العتمة التي أسير إليها بسرعة "اركض"، وكانت الأقدام تتدافع فأشعر ببشر يحيطون بي، أياد عدة على مساحات جسدي، أنظر إلى قبري يصرخ فيّ "اركض"، هارون البنجالي لم يكمل انتزاع العروق من الحفرة التي لا تريد أن تتوسع كما ينبغي.

لكني أحسست بمن يضعني فيها، ويداي لا تصل إلى الجذور، لكنها حتما تحت جسدي، أشعر بطمأنينة غريبة، رائحة ثمار لمباة ود حمد أشمّها كأنها سقطت للتو، وراشد يثير الغبار بسيارة البيك أب في طريق وادي منصح، ولا يلتفت لي، وصوت من بعيد كأنه الهاوية يقول لي "اركض"، لكن المسافة بين عامدي الفلج تتسع كمحيط هائل..

ولا أسقط.

الأستاذ عارف

رأيته للمرة الأولى ممسكا بآلة العود، في السكن القديم للمعلمين، يقاوم وحشة سيح رمته القرية خارج حدوده، متمسكة بالنخيل والليمون وأشجار الأمبا، وأفلاجها التي لا تعرف إلا سواقيها القديمة فقط..

- الاستاذ عارف فنان.

- الاستاذ عارف عنده عود.

- تتحرك أصابعه بين الأوتار كأنها تستنطق الكلام من الآلة الموسيقية.

الاستاذ عارف مدرس جاءت به أقداره من البعيد، وأتذكره من خلف ذلك البعيد أيضا، في كرفانة تشتعل فيها مصابيح كهربائية لم تكن تعرفها القرية بعد أن جلس المعلم الفلسطيني في وحشة السيح والغربة إلى عوده الذي ربما أول عود نراه في قريتنا، وفي حياتنا، شعرت أنه عارف، يكفيه أنه يحرك أصابعه على أوتار آلة صماء فينبعث اللحن طريا وطازجا، وكنا بالكاد نسمعه في أجهزة اصطلح على تسميتها، حينما عرفناها لاحقا، بالراديو.

«عارف» ويزعق الصوت في أذني، يغيّبني وراء الطفولة، ويأتيني بها في ارتعاشة فؤاد، شاشة التلفاز تستحثّني أن أعرف، وألوذ بحيطاني الطينية العتيقة، في مخابئها كنت أدسّ أسراري، كي لا يعرفها أحد، سر طفل نسي طفولته، وكبر، تاركا أسراره في مخابئ الطين، وقد تساقطت الحيطان، ورحل القابضون على رائحة البيوت، العارفين بكل تفصيل صغير يندّ عنه شق جدار.

كانت البيوت تسمع بعضها، معرفتها بسيطة، تنتشر كرائحة الطلع وقهوة الحادية عشرة صباحا مع عودة الرجال من أعمالهم، والنساء من مراعيهن وسائر أحوالهن، التفتوا ذات نهار إلى أغراب يمشون وسط القرية، يرتدون بنطلونات وقمصانًا وأحذية، فتبدّلت القرية وودعت أطفالها الذاهبين إلى مدرستهم الجديدة، وقبض البعض منهم على أبنائهم، مخافة من هذا الوحش الغريب.

لم يقل الأستاذ عارف شيئا عن المستقبل، منحنا ما هو أعمق، لا يعرفني، ليست لي ملامح لا تشبههم، كنت تكرارًا لآخرين،وجوه متناسخة لعشرات الأطفال يسرحون في خيام تشكّل مدرسة، ولم يعد بالطبع يعرفني وهو في اللاهناك الذي أجهله، لو كان حيا لتخطى السبعين عاما من العمر، ولو كان غير ذلك لبقي في العمر الذي رحل فيه عن عالمنا الذي أرادنا له وهو يضع أول الحروف على كراسة فقيرة، بذات الأصابع التي رأيتها تطلق الموسيقى في بدائيتنا.

لم أسمعها كثيرا، مرة أو مرتين، خرجت من نافذة الكرفانة، ربما كانت غرفته هناك، هؤلاء الغرباء لهم مسالك غريبة، يرتدون «شورتات» قصيرة كأنهم ليسوا كبارا، ولا يأكلون بأيديهم، يتناولون الأرز بالملاعق، ويشربون شايا أحمر.

أخذ الزمن الأشياء القديمة، هو يذهب مثلنا أيضا للمستقبل، رحل الأستاذ عارف، كأنما لم يعرفه أحد ذات حين من عمر الزهر، لا أدري إلى أين، كما رحلت عقود من العمر بعده، ولا أدري أيضا.. إلى أين؟.

لاأتذكر جيدا، على نحو يكفي للوصف، كيف كانت همسات عود الأستاذ

عارف، ولا عيني رندة، لكني موقن أن روحي تعرف، وإن لم تخبرني، وقلبي له هسهسة بالغة العمق والشجن إن مرّت رندة على البعد، وكأني أراها تقفز من وتر إلى وتر، تدوزن الموسيقى كما تشتهي الروح، ويحتاج القلب، كلاهما شاخا، ورندة لم تزل طفلة لم تكبر.

كانت «رنده» تسكنني، حينما كبرت قليلا، ابنة المدرس المصري، اسم مختلف عن اعتياداتنا، ولهجة تسيل كالشهد على لسانها، وشفتاها أوسع من حلم، لم أفكر أن أقبّلها، لأني لم أكن أعرف معنى القبلة، لم أرها في التلفزيون بعد، خدّي كان طازجا، لم أتذكر متى آخر مرة قبلتني أمي أو مسح أبي على خدي ذات حنان، تمنيت لو أجيء بالعود فأعزف لرندة كما يفعل الاستاذ عارف، فتحت وجه علبة سمن ممددا خيوط نايلون بين حدّ وحد، وضربت بأصابعي فانهدر رنين صارخ، رميته لأن رندة تشبه حلمًا ينساب على سلم موسيقي، وشعرها أنفاس عود حقيقية..

بحثت عن الأستاذ عارف في حقول الذاكرة، لم أجد موسيقاه.. فرّت منّي كما فعلت رندة أيضا، وفي كل الأحوال لم أكن أعرف، الجهل بالأشياء مخدّر لذيذ، تناوله على قدر احتياجك، سمعته يكرر الجملة كثيرا، الصوت الصاعد من عمقي، وكان المستقبل يأخذني لمطاردته، لم يقل لي ذلك المدرس القديم أين أجده حينما أصعد سلالم دندناته، ولم تمنع عني رندة ورد صوتها حينما كنّا نحيل زهرة عبّاد الشمس نحو الجهة الأخرى للضوء، للوادي الذي تغرب في جباله شمسنا آخر كل نهار، ونبقى ننتظر النهار التالي، لأنه يأتيني برندة، ورد الصوت وضحكة الصباح.. نذهب إلى حيث الزهرة المشرقة كشمس، ندير بسمتها بعيدا عن مشرق الشمس، ونضحك، غير عارفين أن الضوء هو حقيقة مستقبل.

كبرت، وبقي الطفل ناسيا أن يكبر في أعماقي، يتذكر الأستاذ عارف حينا وينساه، كما يفعل مع رندة تماما، حينا وحينًا، يسيل اللحن كما يداعب الماء أصابع رندة وهي تجري إلى حقل الزرع الصغير أمام خيمة فصلنا.

أتكئ على الغافة وحكايات علي الساحر، وبين اليقظة والصحو أراني فارس الحكايات على صهوة جواده السحري يخترق البحار السبعة ليظفر بمهر محبوبته، وعلى الجواد الأبيض أخطف رندة اطير بها فوق السحاب.. لكن عصا أبي تسحبني من غمامات رؤياي ويجفل بدني فأهتز أمام محبوبتي، رندة ما زالت صبية لم تكبر، عمرها عشر سنوات وستجدني في مفرق درب ما نسقي معا عباد الشمس. وساخبرها اني ساشتري عودا كالذي يملكه الاستاذ عارف.

لم تكن تعرفه، ولا أنا أتذكر ملامحه، لكنها سألتني:

- انته مش عارف؟

- لا.

- حنرجع مصر.

شعرت أن زهرة عبّاد الشمس تلاشت، تساقط وهجها حيث ليس هناك من ضوء تطلبه في وحشة السيح، ووحشتي، تضربني كلمة «عارف» كصرخة انبعثت فجأة في سكون القرية، فتردد صداها في حناجر صائحات يستغثن.

«مع السلامة»، قالتها رندة بذات الشفتين اللتين تهطلان عسلا، لم أحفل به إذ كان الطفل جاهلا، تركتني أكبر، كبرت، لا أدري لماذا، لم أعرف بعد لماذا يكبر الإنسان، لا يختار البقاء في طفولته للأبد، يتوارى عن مستقبله.. يغلق شاشة التلفاز مثلا، لا يرى، ولا يسمع، كي لا يتكلم، أمام الضوء المنبعث

من الشاشة المتسعة أعصر ذاكرتي، ويعصرني يوليو بصيف ثقيل الدم، كان رجلًا أعرفه يطل بما يكفي ليقفز الأستاذ عارف إلى بؤرة الدماغ، كان رجلًا متأنقًا يهز رأسه بكلمة عارف، مكررا إياها عدة مرات، وقال لجميع الناس الذين تعطّلت حياتهم أمام القناة المحلية أنه أعدّ استراتيجية، ستنبت الزرع وتدرّ الضرع.

وقبل أن ينتبه إلى غمزة عين جاءته كسهم من بعيد، شعر فجأة أنه في صحراء يسير، تائها، لا زرع فيها، ولا أثر لضرع.

لا تلتفت للعارفين، قال الصوت وتردد في داخلي، جهلك ركنك الشديد فارتكن إلى شدة بأسه، انتبهت قبل أن يأخذني صوتي الأحمق نحو انحرافاته، أطفأت التلفزيون، مستعيدا عود الأستاذ عارف، دندناته المنسابة من نافذة غير مغلقة في كرفان، وزهرة عباد شمس تدير رأسها رندة وتضحك بشفتين من ضوء.

ويأتي الصوت مفزوعا من داخلي: لماذا كبرت؟!

ليتك لم تكبر.

الباب

ترك الباب مفتوحا، قال إنه سيعود، وصدّقته..

تغريني الأبواب حينما لا تتلاقى ثنائياتها، تشعرني بالأمل، أرى الضوء المارق في الطرقات، الريح التي تمرّ حينا فتطرق الخشب تهزه حدّ الخشية من الاقتلاع.

ليس بيدي إلا أن أفعل، الباب المفتوح يعطيني دفء الأمل على إمكانية عودته، أخشى أن تأتي الريح، على قدر اشتهائي لمرورها، فتغلقه، ويظن أنني أغلقت الباب دونه، سيغضب، ويرحل، ولن يعود، وأبقى أشرب جمر انتظاراتي لما تبقّى من العمر، كأنما سيكون هناك عمر أصلا، أو أنني بقدرة تذوق العمر في غيابه.

يأتيني الليل بالوحشة المشتهاة رغم ثقلها على كبدي، ولا أخشى إلا من مجيء الفجر قبل أن يطلّ من الباب كما اعتاد، يعلق دشداشته البيضاء على مشجب العمر ويندس تحت الفراش، يغمض عينيه، أتركه يمضي كيفما يشتهي.. وأكتفي بتأمله، لا أفعل شيئا سوى هذا التأمل رغم كل ما في الروح من لهفة، هو متعب، وقادم من سفر، ويحتاج إلى الراحة، ولا أريد لروحي مشاغبته، أكفّها عنه، مخافة أن ينزعج منها، ويغادر، وقد لا يعود.

سفره متكرر.. غيابه معتاد، لكنني على الأمل دائما، ما حيلتي غيره؟.. حينما يتكرر السفر فذلك يعني أيضا أن العودة تتكرر، أترقب أن تفعل ما اعتادته.

يا قسوتي إن دفعته إلى الرحيل، ويا لشقاء هذه الروح إن تركها وحيدة تمضغ غربتها ولا تجد سوى الحائط تسند عليه روحها لتتألم!

كانت السنوات تغدر بي، وتسحب أنفاسي مني رويدا رويدا.. تقترب الجدران من بعضها أكثر فأكثر، تضيق المساحة من حولي، والباب لا يهدي إليّ سوى الزوابع.. وغبار يتكدس على الضلفتين، على السرير، على روحي.

هل عبر ذات حين ورأى الغبار فظن أنني لم أنتظره؟!

لم يفطن إلى الباب المفتوح قدر ما أوحت له آثار الزوابع من بعده، فشكّ بأني لم أعد هنا، ولم ير روحي تترقب حضوره، وفي كل حين تنفلت مني ذاهبة لمراقبة الجهات علّه يلوح من بعيد، ربما غفت روحي لحظة عبوره.

خشيت من جموح مخاوفي، واقتراب الجدران من بعضها أكثر فأكثر، والغبار المتراكم سيمنعه من توقع حياة هنا.

ومنذ لا أعلم أنظر في بيوت الآخرين المغلقة، وأسمع الصوت داخلي بوضوح: آه من قسوتهم، كيف يغلقون أبوابهم، ألا ينتظرون أحدا؟!.

قالت لي الأبواب المغلقة أن أقاوم فعل الإغلاق، الباب المغلق تهزمه الحياة فيتداعى ساقطا مهما تمهّل وقاوم، يلحق بمن انتظروا، ومن غابوا.

لا تلتقي أعيننا كثيرا، نادرا ينظر في عيني، وعيناي حفظتا مسامات جلده، بدون أن أبالغ في هذا القول، الشعرة البيضاء الوحيدة التي تسكن جفنه الأيمن، تستقر بمقدار معين تكاد لا تفارقه فوق العين، شاربه بغزل الشعرات البيضاء تتمدد من منابتها قبل أن يصبغها بالأسود فيرتدّ شابا في العشرينيات من عمره، يقاوم التجاعيد الخفيفة، والرعشة التي بدأت تغدر بيده كلما سألته عن زمن الغياب هذه المرة، كأنما القهوة تندلق من فنجانها، فيمسكه بيديه

يسند بعضهما البعض.

آخر مرة لم أسأله، قلبي طلب مني أن أفعل ذلك ففعلت، وأنا أسير وراء قلبي، رغم أن يده كانت ترتعش، وبدون فنجان قهوة تحمله، خبأها في جيبه، وتركني عارية أمام صمته.

قاومت اعتياد الغياب، الاعتياد يذهب بنا إلى فقدان الأمل.. تراجع منسوبه في صدورنا، ما الذي يحبسه السد إن منعت السماء ماءها؟!

غادرت غرفتي، حين ضاقت بها أنفاسي، تركت الباب مفتوحا، حتى أعود، لماذا لا أفعل؟ الباب المفتوح يعني إمكانية عودتي أيضا، أو عودتنا معا.

العابية

ذات مسافة بين النوم والصحو حلمت قريتي، رأيتها في الحلم تحلم هي أيضا، العابية حقل ورد، والفلج نهر من عسل مصفّى، والنخيل لا تكاد تهز جذعا حتى يتساقط ملء الأرض رطبا جنيّا، وحينما فتحت عيني انكفأ ما حلمت به كأنه لم يكن، عجزت عن استيعاب إن كانت قريتي صحت من نومها أيضا، وتوارى حلمها عنها.

عوّدتني، منذ الصغر، هذه القرية، أن اتبع أحلامي، كما تقودني لمشاركتها أحلامها، أوصتني أن أعود إليها حينما تجفّ نفسي من أية قطرة حلم، وكنت أعاند: لم تجفّ قدرتي بعد، ربما يمتنع المطر قليلا عن أرض، تتيبس أشجار وتتساقط أوراق حياة، حتى من الإنسان، جسده وروحه، لكن الغيم المثقل بالماء سيلتقي بالأدعية والأماني.

الحيوات التي مرّت في دروبها وبين نخيلها، الأموات الذين اجتازوا شرجة المقبرة ألحظهم يغادرون في لحظات يتم مدقع، جميع أولئك تشابهوا ذات حياة، ويتشابهون حين رحيل، وفي مقبرة قريتي متسع، لكنني مصرّ أن أحلم حتى آخر نبض، والعابية تورق أحيانا، تصعد من سبختها نبتات لها اخضرار يانع رغم أنف الغبار.

- ماذا تفعل؟

- أحلم.

- (ناظرا في وجهي باستهزاء) وأنت مستيقظ؟!!

- لا نحتاج للنوم لنفعل ذلك، تعال جرّب معي، تخلّ عن ركوب هذه السيارة الأنيقة ودس على سبخة العابية، الحلم هنا رائع، بعد النوم تستيقظ فتتناثر رؤاك كأنما لم تكن، في اليقظة يمكنك القبض على ما تتخيّل.

رمى بدراجته الهوائية المتهالكة، واختار طريقا آخر يمرّ من بعيد، يذهب إلى هناك، بعيد بما يكفي، يكرر على مسمعي "دعك في هذا البؤس"، في تلك المدينة لا يرى البؤس، أو أنه يراه أقل، وربما لا يختلط به، يمضي في سيارته الأنيقة، كانت تشبه ما حلمت به كثيرا، ضمن قائمة طويلة من أمنيات معلّقة على سدرة أيامي.

واجهت العابية وركضت فيها كما كنت أفعل صغيرا، ألتقط بهاتفي صورة إثر صورة، أنزل نافذة سيارته بتؤدة ونعومة، رأيت وجهه باسما رغم خطوط كأمواج على جبينه، العينان لا تخفيان انكسارهما، هكذا شعرت في لحظة باغتّه فيها أنني رأيت ما لم يتوقعني..

- ما زلت تحلم؟

- وأنت؟

- أحب الواقع، ولذلك أعيشه.

- أفعل ذات الأمر مع ما أحب.

- الحلم؟!

وقبل أن أجيبه، عاجلني بجملته "اترك الوهم، واتبعني"، ومضى، مع أنني لم أقل كلمة الوهم أبدا، كأنما زجاج سيارته قلب المفردة، في هذه الدرب

مشيت حافيا، أمعن النظر في قدمي، حذاء جميل مهما بدا مغبرا وقديما، كان راشد الراعي يدفع "عربانته" من هذا المسار يحمل الحشائش إلى أغنامه، تتعثر عجلتها الضعيفة بالأحجار ويؤلمه ظهره أكثر، أضرب بقدمي بقوة في الإسفلت الذي قسّم العابية، وبأصابعي على شاشة هاتفي، ألتقط صورة، ثم أخرى، عشرات تتكدس في الذاكرة، وحينما تبلغ الألف لا أدري أي ريح أطاحت بها، في مهاوي، هنااااك، البعيد الذي لا أتبيّنه.

لا صورة في ألبوماتي القديمة لراشد الراعي أو علي بن ساعد، أيقونتان من زمن بعيد، مرّا ضمن حيوات مرّت، وذهبا عبر شرجة المقبرة لاحقين بأموات.. وسابقين لبقية الأحياء، وبقيت.. العابية، لم يأخذوها، استعصت عليهم.

أبحث عن طفولتي، الحياة التي تطفو على سطح ماء تقاوم الغرق، وكان ذلك الرجل يمضي، أنيقا، بهيا، يجول في القرية ساعة ما، يلتقيني مصادفة كأنما نحن على موعد لنكون في دربنا القديم نجترّه، حلم بالنسبة لي، وبؤس كما يراه.

قال لي "اركب، ولا تخف"، وقال: "رأيتك تصوّر، سأساعدك لتكون مصورا في مكتبي، سأشتري لك كاميرا تلتقط الأشياء بمهارة أكبر مما تراه في حلمك"، قلت له: "لكني أحب تصوير العابية والحارة وجدران الطين المتساقطة.. لكنه باغتني" تشبه أحلامك تتساقط جدارا بجوار جدار".

ضحك، وعلى إثر ضحكته سرت، وتعلّمت كيف أسرد أحلامي على كاميرا كبيرة معلقة في عنقي، علّقها، ومعها أشياء أخرى لا ترى، الرجل الأنيق

في عنقي، وطلب منّي أن أتبعه لأصوّره، في أمكنة وأزمنة ألتقط الصورة تلو الصورة، يراني فيبتسم، يتحيّن غمزة عيني ضاغطا بأصبعي على الزر فيتجمّد بابتسامة أو بنظرة جادّة أحيانا.

لكني حين آوي إلى منامي يتكرر حلمي بقريتي، وبالعابية، وبراشد الراعي، وبعربانته الملآى بالحشائس التي فاتني أن أصورها، وأن ألتقط ما تأتي به مخيلتي، صورة راشد وعلي بن ساعد معا أمام دكان عمي سليمان.

- أمنيتك أن تذهب بهذه الكاميرا التي لا تستطيع شراءها ولو بعد خمسين عاما لتصور راشد الراعي وعلي بن ساعد والعابية وسائر البؤس في حارتك!!.

- حارتنا.

- حارتك وحدك، كبرت ورأيت العالم، ولن أعود للتفكير بهكذا مستوى.

- لم أرو لك أحلامي أبدا.

- أراها فيك، فلا حاجة لترويها.

- هي تروي نفسها عليّ كل ليلة.

- يبدو لي أنك اعتدت على البؤس.

....

- وتصويرك بائس، لأن تفكيرك هناك وليس هنا.

غالبت رغبتي أن أخلع الكاميرا من على عنقي، ومعها الأشياء التي لا ترى، لم أفهم لماذا سرت فوق انكساري حافيا، وكان زجاجه ينغرس في قدميّ، في ليلة ظللت ذلك النهار الطويل، حلمت بقريتي مرة أخرى، بدا لي الأمر كابوسا حاولت الفرار منه مسرع الخطى، العابية كأنها نهضت منازل

فخمة لهم، وسيارة جميلة تسير على جسدي تساويه بالإسفلت..

وكانت قريتي في سباتها، ولم تكن تحلم بشيء!

أفزعني ما رأيته في الحلم طويلا، بالأحرى لا علاقة له بكلمة حلم كما أحببتها، حتى إذا غبت في نومة طويلة، وقد عوّدت نفسي أن أحلم مغمض العينين، حاولت أن أستيقظ، لعلي أجمع نثاري من فوق سواد الشارع..

نمت أكثر مما ينبغي، إنما.. لم أعد أحلم بشيء!

الذي اشتعل..
الـذي انـطـفـأ

خضّبت الرغبة قلبه، خضّته بقوة وراودته أكثر مما فعلت معه من قبل عشرات المرات، ألحّت عليه نفسه الشقية بالمضي في رغبته، معاندا ومكابرا، ولن يتنازل عنها هذه السانحة ما أمكنه إليها سبيلا.

لم تكن المرة الأولى في قوة ضغطها على أعصابه، عاودته قبل ذلك حالات مشابهة، كان يهرب منها، ويهزأ من نفسه، يضحك في قلبه، وكلما حاصرته همومه استرجع رغبته ليضحك، ساخرا من أمنية صغيرة لا يستطيعها، بسيطة جدا، لن تكلفه حتى ريالًا واحدًا.

«في طريقي من السيب سأمر على محلات رامز، هناك سأجد الدرزن بنصف ريال، ليس مهما أن تكون من النوع الغالي»..

«أنواع من الروائح المحببة إلى النفس، سأختار ما له رائحة الياسمين، كانت أمي تحب الياسمين كثيرا، وضعته عقدا جميلا على عنقي في طفولتي لا أتبينها الآن».

«سأعتذر لأبي السجين، سيتفهم إخوتي ما دعاني لإنفاق نصف ريال في جنون كهذا، لن يحس أحد بأنني مسرف، وأن المبالغ الخيالية المحكوم بسببها أبي قد بدأت بالتسرب إلى السطح، لدرجة أنني أنفذ رغبتي الشخصية البادية كحلم بدائي».

مشتعلا برغبته، مضى في الطريق، القرية ليست ببعيدة، والشارع مشتعل بالشمس الحارقة حتى يكاد الاسفلت يخرج لهبا.

شاغبته روحه أن يهبط من سيارته الأجرة، ويشعل رغبته / حلمه فوق هذا السواد المترامي تحت جنح الليل، لكنه لا يحب تلك المصابيح الكهربائية، يراها سالبة لحالة السكون والتأمل لليل والقمر والنجوم المتناثرة بحبات قمح مضيئة في صحن هائل.

منذ سنوات كان يقرر بأحادية تامة أنه حينما يعود إلى البيت، سيشعل شمعة، ويحلم على ضوئها، يتخيل أنه لا فاصل بينه وحلمه إلا ضوء شمعة، يمكن أن يراه قريبا جدا حدّ الإمساك به..

حائرا داخل نفسه، هل ذلك هو الحلم، أم أن الحلم يقترب ما بعد اشتعال الشمعة، إذ يرقب بعينين تراقصان اللهب منعكسا أمامهما وفيهما، والظلال على الجدران أخيلة من هواجس تثقله، كأنها في الفراغات تذوي، وتموت، واحدة بعد أخرى.

ترهقه الرغبة منذ سنوات، يتأملها في قاع روحه، مستوحيا الصورة من فيلم سينمائي مازال يرفد نبضه بمزيد من التخيل والرومانسية.

يكتب على وقع تراقص الظلال رسالة حب إلى عاشقة لم تنظر إليه ذات يوم بربع نظرة، ربما لم يرها أصلا، يتوهمها على البعد تمضي، تودعه بيدها من نافذة قطار، تلقي باقة ياسمين من نافذة، تبتسم إذ تقرأ حروفه، يشتعل بالضوء، الضوء النافذ من عمقه والصاعد إلى عمقه، يودّ لو يشعل به المزيد من الشموع، أن يبدّد العتمة إلى الأبد، لا يبقيها في شيء أمامه، ولا حوله، العتمة التي تجاوزها لا يشعر تجاهها سوى بالحزن والألم.

قال لنفسه إنه يحتاج في عيد ميلاده القريب إلى ثلاثين شمعة، سيفعل تماما كما فعل بطل المسلسل التركي وهو ينتظر حبيبته ليفاجئها، لكنها

شموع عيد ميلاده لا ميلادها، حسنا، لا يهم، ستأتي، هي متحررة لا تمنعها حدّة الألسنة في قريته الجبلية من المجيء، ستفتح الباب، سترى الشموع تحيل المكان قطعة فرح ملونة، ستبتسم، ويبتسم، ستمسك يديه ويمسك يديها، ستتأمل تراقص لهب الشموع في مقلتيه، وعد نفسه بأنه سينسى دموع أبيه إذ وقع من شامخ لم يكن على باله، ولن يفطن إلى آلام أمه وأوجاعها من أمراض ما بعد الوقوع المر، سينسى جميع ما لم يتصور يوما أنه قابل للنسيان.

فقط، سيتأمل ذوبان جمال المشهد في جمال عيني حبيبة يضن بها القدر والعمر، تقول له اغمض عينيك، وبعد تمنع سيغمضهما منتظرا الهدية، تماما كما يحدث على الشاشة حينما تعرض المسلسل التركي عصر كل يوم، بالطبع ستكون حبيبته جميلة كما هي الصبية التركية، أغمض عينيه، وفاجأته بأن وضعت الهدية على شفاهه، ذاب، ذاب كشمعة، كقطعة جليد باغتتها شمس.. لكن النار تتسلل إلى كيانه كله..

تذوب روحه ويشتعل جسده..

تشتعل روحه ويذوب جسده.

سيذوب في حلم طويل، أطول من ليلته تلك، ومن حبيبته، ومن شعرها، ومن قصيدته التي يتمنى كتابتها لكنها عصية على لسانه رغم أنه شاعر بالألم، أكثر مما تحتمله أي قصيدة.

طلب من الراكب المتبقي في سيارته الأجرة انتظاره في المواقف أمام «زاخر»، البنجالي الذي يغفو بكثير من التعب، دقائق وكانت يده قابضة على كيس بلاستيكي تكاد الشموع أن تحرق أصابع حاملها.

«حسنا، سأصل إلى البيت، وأدخل الغرفة، أطلب من أشقائي مغادرتها

بعض الوقت، سأجمع نثار أفرشتهم وملابسهم التي تضج أمي بفوضاها المشتعلة كل حين، سأفرد مكانا للشمعة، شمعة واحدة الآن تكفي لإحراق هذه الظلمة، سأستبقي الأخريات لعيد ميلادي المقبل، أريده مميزا، حسنا، لتكن هذه بروفة جادة لحفل عيد ميلادي، سأضيف فقط (كيس مينو) وغرشتين (ديو) من النوع الكبير، وسأطلب من الوالدة تصنع له عرسيّة».

سأصل إلى البيت وأضع شمعة في ركن ما، على الجدار الغربي مثلا، لا.. من الصعب هناك، الستارة ليست بمأمن، قد تسقط في أية لحظة، تذكّر أنه لا ستارة هناك، أفرشة بسيطة لم تتبدل منذ سنوات، اشتراها والده قبل أن يقع من ذلك الشامخ، اشتراها يوم أن كان شامخا بفرح تضخم هالات المحفظة الاستثمارية وعوائدها الشهرية.

دون مقدمات شعر بخواء داخله، كأنما الهواء انسحب من رئتيه، فرّت عصافير أحلامه من قفصه الصدري، كفّ عن أحلامه، لم يعد في ذهنه إلا أبوه، تمنى طويلا لو توقف حلمه به، أن يبقى شريط الحياة بدون ذلك المشهد، بحث عنه، قيل له إنه توارى هناك، في «الدسر»(*)، لم يعد بمقدوره حمل أثقاله حينما اشترى وهم الربح السريع، باع كل شيء من أجله، ورهن نفسه إلى البنك.

مرّت سنوات لم ير أباه، ترك له بيتا مؤجرا، وعائلة لا تكفيها ريالات عمله في شركة البسكويت في الرسيل، تساقطت أحجار هرم الوهم، كبر هرم السلفة، تضخم، ليس بيد أحد وقف نموها السرطاني.

تراقصت أخيلة في رأسه، أقوى من رقصات لهيب الشموع أمام عينيه، لم

* موقع السجن المركزي

تخرج الحسناء التي تشبه الفتاة التركية من مضجع قلبه، تحاول أن تأخذه نحو الحلم مرة أخرى، تصعد به لسمائها مرة أخرى.

قال له أبوه: يا بني اركب معنا، القارب يسع الجميع، ستجد النقود تتساقط عليك كل شهر رطبا جنيا، ونخلتك لا يمسّها سوء، ستأخذ الفائدة ورأس المال، سنغدو أغنياء كما نتمنى، سنغرس بدل البيت الصغير آخر كبيرا يسعنا جميعا.

.. وكان والده يبكي حينما يردد أمام المحكمة: «بغينا الفائدة غاب رأس المال».

كانت السفينة كبيرة، والرياح مواتية.. والموانئ كريمة وطيبة، فجأة ثقب باطن السفينة، فالرياح عاتية، والموانئ اختفت، وحده البحر كان يفتح فمه يبتلع المتساقطين، واحدا بعد آخر، سفينة إثر سفينة.

وصل البيت، على زاوية، لم يعد بوسع أحد رؤيته.. كان منطفئا.. على نحو لا يحتمل..

ولم يفطن له أحد.

عيش برخ

لا يمكنه الجزم بالزمن المحدد بدقة، لأول مرة قالت له أمه الكلمتين، وفي نطاقات حياتية عدة اجتهد في تفريقهما عن بعضهما، متأملا سلوته الأثيرة، مشاهدة مقاطع الفيديو للرجل الوحيد الفاهم، كما يصفه، أبو فيصل، ويضحك، في كل مرة يضحك، يكرر فعل المشاهدة والضحك، ويردد: صلاة وحدة، وعيش برخ![*]

قالت له أمه في أول وعي له، وقوفا أمام شاحنة متصدق توزع المواد الغذائية، معلقة على تدافع أهل الحارة عليها: «عيش برخ»، وأمرته أن يقف في الطابور غير المتناسق، رافعا راحتي يديه، كيتيم، نحو الكيس المملوء أرزا.

رأى أمه تنقّي الأرز من الشوائب، والحشرات الصغيرة، الدويبّه، بفرش الكمية في صحن كبير ترفعه وتخفضه بسرعة لتبتعد الأشياء غير المرغوب فيها إلى الحواف، وتغسل الأرز عدة مرات ليصبح ماؤه في المرة الأخيرة أقل اغبرارا، مع «العيش البرخ» لم تعد تفعل ذلك كثيرا، لأنه أنقى وأجود.

كبر، وأخجله عمره من الوقوف ضمن تزاحم الأكتاف على موزعي الأغذية المجانية في حارتنا، قبل أن يتوقفوا نهائيا عن المجيء، لكن جيرانهم يهدونهم في مناسبات شتى، حقيقية أو مخترعة، كيسا به نحو

* عيش برخ: تعني حسب العامية العمانية الأرز بالمجان

كيلوجرام أو أكثر من الأرز، مع تخرّج أحد أبنائهم، أو ليلة عيد الفطر، يأتي به أحد اخوته الصغار، وتسأله أمه من أين؟، ويجيب: من عند الجيران، وتعلق: الحمد لله، جانا عيش برخ.

لكن الصلاة الواحدة اعتادها عندما بقي عازبا في مسقط عدة سنوات، يصلي «جمعا صلاة سفر» كما يكرر في نية الوقوف بين يدي خالقه، مستحضرا أمه، على سجادة الصلاة في غرفة بسيطة ينحشر جسده فيها بين أجساد لا يدري من أصحابها أحيانا، من رفاق زملاء السكن، كما يردد.

يعلق المشهد جانبا ويتأمل مشهدا مستعادا للمرة الألف بعد الألف، وجه أبو فيصل، ويضحك، يكرر كلمته الأثيرة «أحرقها» ويواصل الضحك، لم يفكر أن يحرقها، ولن يفكر، كوني أعرفه جيدا.

صرخ في وجهي: اييييه، أيها السارد اللعين، من أنت لتعرفه جيدا؟!، أنت بالكاد تعرف نفسك.

تواريت مرة أخرى، وأنظر إليه من بعيد، في طاولة واسعة الاستدارة، عليها أنواعٌ فاخرة من الأطعمة، لكن صحنه مملوء بالأرز فقط، لا يريد إلا «العيش»، والمطبخ ذي النجمات السبع في منتجع شانجريلا يقدمه بمهارة فائقة، الزعفران يلونه باصفرار يتبدّى ذهبا تحت الثريا المعلقة بخفة محسودة عليها، والمكسرات ترفع من شهيته، يهمّ بتناول الأرز بيده كما اعتاد، لولا مخاوف الإتيكيت.

لكزني بكوعه في خاصرتي: أيها السارد، إذا لم تتوقف عن الحسد سأقطع عنك المشهد نهائيا، أو أسلط عليك أبو فيصل.

قلت له: حسنا، أنا أصف المشهد من بعيد، أحاول أن أذكره بكلمتي أمه «عيش برخ»، ألا تراه يأكله حتى الحين؟

غضب في وجهي: رجل بمثل مكانته، هل تريده أن يدفع قيمة ما يأكله؟! هو مدعو، هو الذي يشرّف الجلسة بحضوره، أكمل كتابتك بعيدا عن أمراضك، هذه العناكب في رأسك ستأكل مخك أيها الحاسد!.

وددت لو أقترح على الرجل الجالس يأكل بالملعقة المتلألئة في فضاء المنتجع أن يذهب إلى «ماعون» الكافيار، ربما لم يتعرف عليه بعد، خشي لونه الأسود ربما، لكني لم أطمئن إلى وجود ذلك الصوت الغاضب الملعون الذي يحاصرني، سيقول لي حتما: من أنت حتى تطلب منه أن يأكل هذا ولا يتناول ذاك؟.

سمعت الرجل يقول لسفير أجنبي قريب منه يجلس: «نحن العمانيون عيشيون بطبيعتنا»، رأيت الرجل كأنه لم يفهم، اقتربت منه وشرحت له أنه يقصد أننا أرزيّون، أي نأكل الأرز بكثرة، لم أكمل شرحي: خاصة إذا كان مجانا، فالحكمة تقول «مال البرخ غاوي» سعادة السفير، والمثل يقول «مال البخيل ياكله العيّار»، وأضيف «أبو بلاش كثّر منّه».

شعرت بعنقي يكاد يتحطم، شدّ على عنقي من الخلف بقوة جامعا بقبضته القاسية جانبا من دشداشتي، وكلما ضاقت أصابعه أكثر اشتد الخناق على رقبتي كأنما الحافة المطرزة أنشوطة مشنقة تحكم قبضتها..

كان غاضبا أكثر مما توقعت، تتناثر شظايا بصاقه: هل مطلوب منك أيها السارد البغيض أن تسرد الأمثال وتخلط العماني بالمصري والعربي بالعامي لتظهر حنقك عليه؟! دع الرجل يتناول عشاءه كما يحب، هو يخدم الحكومة، ويخدم في الحكومة، من حقه أن يتعشّى ما يشاء وأين يشاء، ولو قيّض لك وأصبحت مسؤولا كبيرا في موقع حساس كموقعه لأكلت كل وجباتك الثلاث على حساب الحكومة.

تخلصت من قبضته قبل أن يكتم أنفاسي، وأنفاس قصتي، محاولا رسم مشهده الآخر بحذر أكبر.

كانوا يجرّونه ليجلس في صدر المجلس، فرح أصحاب الدعوة بحضوره فوق فرحتهم بمناسبتهم التي دعوا إليها آلافا تحلقوا في دوائر صغيرة وصولا إلى حواف الحوش الخارجي للقاعة الواسعة، جيء بصينية يسمونها «بو حلق» يحملها أربعة أشخاص تتمدد فوق تل الأرز فيها ذبيحة، «غنم عماني»، سمعت شرح أحدهم إيماءة لأهمية الحاضر بينهم، توزعت مئات الصحون الصغيرة وعليها قطع من اللحم أصغر، على بقية حلقات البشر.

سأله مجالسه، محاولا استعادة ضحكته، والتقرب إليه بشيء من حنين الأمس، وتفاصيله المرحة:

- شفت آخر مقطع حال أبو فيصل؟

- من أبو فيصل؟!!
- صاحب كلمة «احرقها».
- للأسف ما عندي وقت حال هذه السوالف.
- .. وبعده حيسوّي مقطع عن العيش المغشوش.
- ناس فاضيه!

أصغيت سمعي قدر ما تسمح به المسافة بيني وبينه، على أمل وجود فرصة سانحة أمامي لأذكّره بمقاطع الفيديو التي كان يشاهدها حتى تدمع عيناه من الضحك، لكني تحسست رقبتي!

صلاة الوالي

ليس بوسع ود جابر إلا التمعّن في الوجوه المبلّلة بالعرق تحت شمس قريته أرض السعد، والنظر بغضب صوب شيخ القرية كلما وقف أمام جموع المصلين صبيحة العيد ليقول لهم إني هنا، انظروا كم أنا أنيق هذا الصباح، خنجري يلمع في مواجهة الضوء الشارق، والمنعكس على الجبل المقابل.. وعلى وجهي.

نهض عضو مجلس الشورى بعده، من الصف الأول، يمسح بوجهه الصفوف المتراصة يقيس حضوره في الوجوه التي يتخيّلها جميعا تلتفت إليه في تلك اللحظات، لتراه، تتذكره، منذ الانتخابات لم يره أحد، من الذين زارهم فردا فردا في منازلهم للحصول على أصوات قال لأصحابها إنهم أهل وبينهم صلة رحم، وعلاقة ممتدة "منذ القدم"، يكرر الكلمتين اللتين تسفحهما الألسن، والصحف المحلية، كلما كتبت عن التاريخ، وبعد أن أصبح عضوا تعذّر وجهه، وهاتفه، عن الوصول إليهما.

تحسس عضو المجلس البلدي خنجره، أسوة بمن سبقه في الوقوف، وهبّ بقامته القصيرة، كمن يتفقد حال الرعية في زمن قحط، وكانت الوجوه، على تعددها وتباينها وتحزبها وتخنجرها، تنظر إلى كل واقف من الصف الأول يدير فيهم نظرات سريعة طالبا منهم النظر إليه بتمعن يستحقه هذا المعتني بتفقدهم، ريثما يأتي المنتظر.

رأت الصفوف الممتدة، طولا وعددا، في وجه الشيخ عبوسا لم تعتده

في مناسبات سعيدة كهذه، فسّره العارفون ببواطن الأمور أن الشيخ غاضب من الوالي، لم يخبره أنه سيأتي لصلاة العيد في قرية أرض السعد، اعتبر الخطوة قلة احترام لمكانة شيخ "تميمة" كما يحب أن يصف نفسه، ويكرر "شيخ أصلي ما مثل هذيلا بو تو طالعين".

كلما وقف واقف من أصفياء قرية أرض السعد نظر في ساعته، الوالي لم يأت، تأخر، والشيخ غير متأكد أن الوالي سيأتي، بدأ شك يخطف منه ما تبقى من يقينه، للمرة الأولى استحضر اسم الوالي حافّا في مخيلته، كان يقول سعادة الوالي، ثم زاده: سعادة الشيخ الوالي، وبعد أن حصل على الدكتوراه من مصر شكّك في صدقية الشهادة لكنه أعطاه بقية الاسم: سعادة الشيخ الوالي الدكتور، ولم يكن يحفل بأي الألقاب الأربعة يأتي قبل الآخر، لكن الأيام الأخيرة، ومنذ انتشار خبر حضور الوالي لصلاة العيد في قرية أرض السعد تغيّر مزاج الشيخ تجاه الوالي، شكك في أهليته لمنصب الوالي، وفي مشروعيّة مشيخته، وفي شهادته التي قال أنه إشتراها، ومتأكد من ذلك، يكرر "لو بغينا شهادات مثله كان لقيناها بنصف السعر".

تذكّر مجالسوه غضبته يوم أن قالوا له أن سعد الدلّال يدرس الدكتوراه في الخارج، هبّ غاضبا وقال إنها ما تقصر على الدلاليل هذه الشهادات، ويعيد نفس الجملة «لو بغينا شهادات.....».

الشيخ سمع مثل غيره، ووصلته رسالة "الواتساب" كالآخرين، لم يستطع أن يصدق بداية، لكنه عجز عن تكذيب الأمر، ماذا لو كان صحيحا، وجاء سعادته إلى مصلى العيد ووجدهم قد بدأوا الصلاة؟!، سأل الشيخ نفسه عدة مرات، وجهر به لخاصته أولا، ثم بدأ ببعض العامّة، كيف سيقف

الوالي في الصفوف الخلفية، هذه التي حجزها مئات من الباكستانيين والهنود والبنجال العاملين في قرية أرض السعد؟!

صعدت شمس قرية أرض السعد أكثر، والمصلون يكتوون بحرارة يوليو، ملابسهم البيضاء الجديدة، والمصار على رؤوسهم كل لابس يحسبها أنها تثير فضول الجميع لمعرفة سعرها ومديح جودتها وأناقة أشكالها، لكن ود جابر لا يكترث بكل ذلك، يعلق بندقيته على كتفه ويطلق الرصاص كلما وجد مزاجا، قبل سنوات منعت الحكومة إطلاق النار في المناسبات كافة، لكن ود جابر أعلنها صريحة "الحكومة تسير تلعب وأنا ما يردني أحد".

كان الشيخ يسمع صوت الرصاص المقذوف من بندقية ود جابر، وينعقد فؤادا عضوي الشورى والمحلي لعجزهما عن إيقاف ود جابر بما يكفي لإظهار قوتهما.

انتظر ود جابر ظهور الوالي ليحتفي به على طريقته الخاصة، والمعاندة لبيان الحكومة المانع، لكن الوالي تأخر، والشمس تلسعهم أكثر، وعيد الفطر يتخلى عن اسمه السعيد تدريجيا، والهواتف خرجت من مخابئها في جيوب الرجال تنبش في خبر مشاركة سعادة الشيخ الوالي الدكتور لأهالي قرية أرض السعد فرحتهم بالعيد.

- يا جماعة، شوفوا الخبر زين، يمكن الوالي ما قال يجي يصلي.

- يا ود جابر، خليك في حالك، غيرك يعرف أكثر.

لكن سيارة "لكزس" اقتربت من مصلى العيد، ونزل أحدهم لابسا البشت متأكدا في خطواته من ضبطية الخنجر على وسطه، نسي الجميع العرق الذي أغرق ملابسهم فالتصقت على أجسادهم، العرق الهاطل من

جباه وأنوف بقيت مشدودة للابس البشت يخطو خارج سيارته اللكزس، لا يهم أنه تأخر، المهم أنه جاء، لكن الجموع المصطفة خلف الصف الأول، وقد نهضت في ظرف لحظات، أدهشها أن الشيخ، ومن كانوا يتبادلون الوقوف تفقدا منهم، تراجعوا عن اكتراثهم الذي أبدوه في اللحظات الأولى لوصول السيارة، حتى إنهم تدافعوا فيما بينهم ليفسحوا مكانا للقادم.

اقترب لابس البشت بما يكفي لتتبينه الوجوه أكثر، كان سعد، دلّال السوق، يربك المشهد، سيارته اللكزس التي اشتراها من سوق السيارات المستعملة قبل أسبوع، يعرفون سعد، أسلوبه المستفز، وتقديره المبالغ فيه لنفسه، اخذ مكانه بجوار الشيخ، وقال لخميس المطوّع: "أقم الصلاة، الوقت تاخر".

تعمد ود جابر أن يسمع من على يمينه جملة "صلاتي بصلاة سعادة الشيخ الدكتور الوالي" بدلا من القول المعتاد "صلاتي بصلاة الجماعة" متوهما أن من تمكن من سماعه سيقول إنها بصلاة سعد الدلّال، انفجر أحدهم ضاحكا فانفجرت الرصاصات من أفواه بنادق خارج المصلى تحتفي بالعيد وبالوالي..

لم يكترث أحد بقرار الحكومة منع إطلاق الرصاص، اللكزس وصلت والصلاة أقيمت!

ما حكاه الراوي
عن سعادة الحمار

.. ومضى الراوي يسرد ما مرّ من حوادث وأحداث، وقلّد صوت المتهم يشرح للقاضي أنه لم يكن يعني أحدا، وأن الحمار كان حقيقيا.. ومرة يراوغ الراوي صوته ليقوم بدور الشيخ المعمم الجالس على منصة المحكمة.

- اعترف، من تقصد؟

- الحمار، يا شيخنا القاضي، لا غيره.

- لا ينفعك إنكار ذلك، الكثيرون عرفوه من الاسم فور قراءتهم قصتك.

- لماذا اعتقدوا أنه هو لا غيره؟

- ماذا تريد أن تقول؟

- أن ذلك رأيهم، وهو ما لا يلزمني بشيء.

- ومن رفع عليك القضية؟ هل ذلك رأيه في نفسه أيضا؟!!

"وضجّت القاعة بالضحك، وغالب المتهم ضحكته"، قال الراوي، وكأنهم أشاروا إلى الشاكي، أو رسموه في أذهانهم.

- هل الحمار يفهم؟

- ذلك خيال يا شيخنا القاضي، ومن يكتب الحكايات يلزمه خيالا، لو يفهم لما كان حمارا، ولأحسن العمل في مزرعة الوالي؟

- إذن الوالي أعجبه الحمار فلم...

- اسمح لي شيخنا القاضي على المقاطعة، الخيال لا حدود له، أنا تخيلت حمارا وهو تخيل أنني أعنيه، والناس تخيلوا، لو كنت في بلد

آخر لقالوا إنني أعني أحدا ما.. يا شيخنا هذه تهيؤات خيالية، والقاصون يقولون ما لا يفعلون، شأنهم شأن الشعراء أيضا يا شيخنا، وربما تعرف أن عصرنا هو عصر السرد.

كان الراوي متعجبا أكثر من مستمعيه وهو يحاول أن يسرد عليهم الجملة الأخيرة، أما القاضي فشعر بضيق منها، ماذا يقول هذا الأبله من كلمات، وكيف يغدو الحمار مثقفا، ومن يؤلفون الحكايات كالشعراء؟!..

"هذه القصة يا شيخنا، أقرؤها عليكم كما كتبتها، لكن أرجو منك وأطلب شيخنا القاضي أن لا تضعوا في أذهانكم صورة الشاكي أبداا، أبداا، لأن المتهم الحقيقي هو من يتصور أنني أعني شخصا بعينه، فهو الذي يعتبر الشاكي بطل قصتي هذه، وليس أنا، فالمرفوسون كثر يا شيخنا.. وإذا اعتبر أحدهم أنني أعنيه فهذا تصوره لنفسه أولا وثانيا.. وأخيرا".

تراجع القاضي إلى الوراء قليلا، فيما بدا المتهم داخل المربع الخشبي الصغير كأنه منصة أدبية لإلقاء نصوص أمام جمهور..

قال المتهم:

خرج مطأطئ الرأس، مع أنه، كما روي عنه، كان يترقب هذه اللحظة بفارغ الصبر، تعب من العيش في مزرعة الوالي عشرات السنين، لكنه بقي عاجزا عن تفسير ما حدث، وما فكر به.. وما سيفكر.

صاح خلفان، المثقف، بشدة: الحمار لن يترك المزرعة بل هو متشبث بها، لم يفسر خلفان كيف فهم الحمار على هذا النحو، مع أن المفترض، ووفق السمة الحيوانية، أنه لا يمكن فهمها من خلال أصواتها، أكد خلفان مرة تلو مرة أنه لم يجد حمارا مثل هذا يكذب، ضحك مستمعوه، الحمار

لا يكذب، أنت تصدق فقط أيها المثقف كي يمنحك ابتسامة رضا.

حدث مرة أن الحمار ابتسم، وهو ينظر إلى صفحات كتاب، سرت الوشاية إلى الوالي، أن هناك حمارا يبتسم، ويفهم، وضحك الوالي كثيرا حينما قالوا له إن الحمار ينظر إلى أوراق الكتب ويبتسم، كأنما يفهم.

أصدر الوالي أمره، وجيء بالحمار فيما الناس تختلف في الأسباب، كان ضخم الجثة، عريض الظهر، ويفتح فمه كما لو أنه يبتسم فعلا، أو بصدد إطلاق ضحكة قوية، قوية جدا بما يكفي ليتغير صوت النهيق إلى ما يشبه الصوت الإنساني، كان الحمار سعيدا، في غاية السعادة التي عرفت في عالم الحمير خاصة، والحيوانات عامة.

تحدث الناس عن الحمار السعيد، وسرى خبر السعادة التي أصابت الحمار سريان النار في هشيم المزارع.

عبدالله، أو عبّود، كما يصغّر الناس اسمه، درجوا فسّر خطوة الوالي بأنها خطوة في الاتجاه الصحيح، صرخ سامعه، وكان زايد بن مصبح، من أين جئت بهذا الكلام وأنت لا تعرف "كوعك من بوعك"؟، أجابه عبّود: وهل يعرف الحمار كوعه من بوعه حتى يثق الوالي أنه يقرأ ويبتسم ويفهم؟!

وجاء سعيد من بعيد يسعى، وقال إن الحمار لا يشبه غيره، فقد أعجب الوالي بسلالته، وحكمته، حيث يميّز بين كلمتي الشعير والبعير، ويدرك الفرق بين حرف الألف وعود القصب، فللّه دره من حمار عبقري، ولله دره من وال حكيم، وأردف: من أوتي الحكمة فقد....، لم يكمل، نهض إبراهيم المطوع، وقال له: تأدّب واسكت، آيات القرآن لا يليق بها أن تقال في حدث كهذا!.

قال خلفان، المثقف، وكأنه في مشهد مسرحي: ليذهب هذا الحمار إلى مزبلة التاريخ، مرة اقتربت من مزرعة الوالي فنهق في وجهي، وكاد أن يرفسني بقدميه المتوحشتين، تخيّل الحمار أمامه، يختال في المزرعة، يأكل ما لذّ له وقد طاب له المرعى، صرخ في الحائط الذي أمامه: ألا من أحد يخبر الوالي أن الحمار يدوس على ورد الحديقة، ويأكل أشجارها المثمرة؟!

لم يفش خلفان سرّه العميق مع الحمار الذي حالما رأى زوجته، الشاعرة، وهو يأخذها قريبا من المزرعة وبيدها، كما في جسدها، قصيدة مدح في الوالي، رآها الحمار فأرخى أذنيه وفتح فمه اشتهاء كأنما يريد حقا أن يبتسم، حينها ردد خلفان في سرّه، وكما هي عادة المثقفين: حمار تافه وحقير.

ضبطه عبّود وهو يدفع بأصبعه في عين الجدار، "يا أخي الحمار في عيني الوالي ليس كالحمار الذي في عينيك، ولذا هو باق غصبا عن عينيك"!

تراجع خلفان بجسده إلى الوراء قليلا كأنه فوجئ بالهجمة الهمجيّة من عبدالله، أو عبّود، "لكن الحمار خرج من مزرعة الوالي"، استعاد خلفان توازنه "لكنه كيف ولماذا وإلى أين؟"، سيهيم في أرض الله الواسعة، رد عبّود، لكن المثقف الخبيث تساءل بخبث معتاد: يعني سيكون سفيرا؟!

ضحكا معا، ضحكا بقوة، حمار سيكون سفيرا، بقيا يضحكان عدة أيام، وتخيلا كثيرا، عشرات السنين قضاها الحمار في مزرعة الوالي، بدا بصحة جيدة وهو يخرج من بوابة المزرعة، علف طيّب وطبيب بيطري يفحص صحّته باستمرار، رغم أن شفتيه تهدلتا قليلا بفعل السن، لكنه يحاول أن لا يبدو قد تجاوز مائة عام، اقتنص خلفان المثقف الجملة وقال: مائة عام من العزلة، لم يفهم عبّود، لكن عندما قال له مرة أخرى: مائة عام من

الحمرنة، وألف عام من التفاهة، ومليون عام من اللاشيء، ضحك قليلا، وسار في دربه.

كان الحمار منتشيا رغم كل شيء، لا يريد الالتفات إلى الخلف أبدا، لكنه بقي على عادته السابقة، تثيره روائح الإناث، ينسى حتى الوالي نفسه، ينسى المزرعة الخصبة، المزروعات جميعها، عندما يلحظ أنثى، تبدو ابتسامته جلية أكثر، يحرك أذنيه بمرح، ويحاول أن يكون ظريفا، رغم جسده الضخم يحاول أن يبقى خفيف الدم ليرى ضحكاتهن وهن يتغامزن عليه باعتباره حمار الوالي.

تراجع الراوي قليلا وصمت، كأنه أطال في القصة ونسي حالة القاضي ينصت للحكاية، نقّل بصره في أعين مستمعيه، "هل تظنون أن القاضي مقتنع بقصة هذا الحكّاء المتهم؟، لا وألف لا، إنه يفكر كيف يربط بين حمار القصة والشاكي"، مضى في قوله مغيرا نبرات صوته ليكسب آذانا جديدة، وكي يقطع قليلا من فجوة الفراغ الممل، حدثهم عن القاضي الذي سأل المتهم:

- وهل الحمار يشتهي النساء؟

- بالطبع يا شيخنا القاضي، بالطبع، إنها غريزة حيوانية بلا ريب ولا شك، ولولا الحياء لحدثتك عن حيوانيتي التي تغلبني أحيانا فأغدو حمارا.

- أتقول هذا على نفسك؟!

- لماذا لا يا شيخنا، لماذا لا؟! ربما يكون الحمار أفضل فيما يعمله أكثر مما أعمل، هو يجتهد ويعمل بدأب وصبر حتى يقال إنه يعرف الطريق إذا تكررت، وأنا لا أجيد كل ذلك.

- أترك هذا جانبا وأكمل قصتك..

أخذ المتهم نفسا من الصمت، ثم أكمل:

سعيد أصرّ أن الحمار لم يغادر المزرعة، الوالي متمسك به، لن يجد أفضل منه، كذّبه حمدون، وقال إني رأيت بعيني اللتين سيأكلهما الدود حينما فتح باب المزرعة والحمار يبتسم رغم أن الدمع في عينيه بيّن، ولّى ظهره للباب، وكان ينهق ويرفس برجليه، فسّر خلفان، المثقف الحريص على التحليل والتدليل، أن الرفس عادة معروفة لدى الحمار، حتى العاملين في المزرعة لم يسلموا من رفساته كلما حاولوا ردّه عن التمرغ فوق أصص الورد، والوالي لا يصدق الوشاة، هذا الحمار ينظر في الكتب ويبتسم، حقا إنه يفهم، والمزرعة تحتاج إلى حمار يفهم!

"لكن الناس حسّاد، يكررها سعيد في كل مرة يسمع حديثا عن حمار في مزرعة الوالي، يحسدونه على سعادته التي "يتمرمغ" فيها، كانت ابتسامته تشي بمقدار السعادة داخله، "أكل ومرعى وقلة صنعة"، يكرر عبّود، ويغضب عليه سعيد: اتركوا الحمار سعيدا، لا تحسدوه على هذه السعادة"، خلفان يرى نفسه المثقف الوحيد، ويستكثر على الحمار أن يكون مثقفا.

نسي الحمار مرة أنه حمار.. في المرة الأولى استغرب الناس، وكلما أصبح ينسى أكثر بدأ الناس التعوّد، وتعوّذ إبراهيم وهو يمسّد لحيته من تغيير خلق الله، ويكرر: «يا ناس، اتقوا الله، الحمار سيبقى حمارا كما خلقه الله سبحانه وتعالى، لم يعطه الله عقلا ليفكر مثلما الإنسان».

نهق الحمار كثيرا على من أشار إليه باسمه، رفس كثيرا، صاح أيّاما كالملدوغ،

تخيّل أنه إنسان، ما الذي يفرق بينه وهذا الآدمي الذي يعلفه كل يوم؟!، علق خلفان: "هذا الحمار لو فهم لمات"، لا ينسى خلفان أنه اقترب منه حدّ وصول الرفسة إلى كرشه المندلقة، كما يليق بمثقف يكتب كل يوم كتابا، يرميه للحمار ليأكله، يقول: "عسى أن يتسمم، لكن الحمار يدوس الكتاب بقدمه اليمنى، يهرسه، ثم يعيد ما فعل بقدمه اليسرى، كأنما يقتص، لكن مهرج الوالي قال أنه شاهد الحمار يفتح كتابا بكلتا قدميه، ويتوتر، قال الوالي: "مؤكد أن محتوى الكتاب لم يعجبه، بورك من.. حمار، أريده أن يكون سعيدا أكثر، أطعموه المزيد من العلف، انتقوا له ما يريحه أكثر، سينطق ذات يوم وسيتحدث اللغة العربية بطلاقة، سنعلّمه النحو والصرف وأساليب البلاغة، وربما يقف وراء المايكروفات يلقي خطبة بدون أن يخطئ في النحو"!.

- يا سيدي الوالي، الحمار يعمل ويكافح، وهو صبور، لا تصدق فيه قول الوشاة.

- هذا حمار مخلص، لا يهمّني ما يعمل، المهم أن يكون مخلصا.

- ما رأيكم أن نكرّمه يا سيدي الوالي؟

- ماذا تقترح أيها المهرج الجميل؟

- عيّنه......

ضحك الوالي، وقاطع المهرج، وقال "للمرة الأولى في تاريخ الحضارة الإنسانية أن..."، أجاب المهرج: "أبدا أبدا يا سيدي الوالي، حدثت وتحدث.. وستحدث".

تلفت الراوي مخافة أن يسمعه أحد، وتلفت القاضي خشية أن يتحدث أحد، واستدار المتهم متفقدا الوجوه خشية أن......

دم أزرق

تكدس موظفون في ممرات دوائر المبنى المهيب، تحاشى مديرو العموم الظهور مختلطين بغيرهم، ظلوا يراقبون المشهد من خلال شاشات تنقل إليها، عبر كاميرات المراقبة، ما يحدث، المنسقات الحسناوات، أو كما يظن موظفون كثر، يختلسن النظر عبر الباب كلما وجدن سانحة، أو بطرف العين حينما يدخلن مكاتب مديريهن.

مالان، حامل صينية الشاي بين المطبخ والمكتب الفخم، لم يصدّق، اعتبرها من الإشاعات المتداولة يوميا، وتذوب آخر النهار، كالموافقة على الترقيات، زيادة الرواتب، راتبين زيادة بمناسبة العيد الوطني، اعتاد على تصديق كل شيء، وتوزيعه ضمن نشرة الأخبار التي يحملها، يصدقه البعض إذ يدخل المكتب الفخم كل صباح، ومع الظهيرة، وقبل أن يهمّ المسؤول الكبير بمغادرة المكان، تاركا تقطيبة في وجه مالان، وابتسامة تشرق لها شمس مكتب المنسقة، تكاد أن تتراقص لها لوحات الورد التي يحبها المسؤول متغزلا، وتضعها منسقته بتنسيق يتلاءم مع مسمى وظيفتها.

لكن هذه الإشاعة لم يصدقها مالان نفسه، سيتبرع بالدم؟ سواء بسواء كبقية الموظفين؟!،

حكّ رأسه، لكن هذه المرة ليس لمشكلة جلدية أو عادة لازمته منذ طفولته، إنما حيرة، آخر مرة زارهم بنك الدم تمدّد عدد قليل من الموظفين على الأسرّة المتنقلة، مديرو العموم، وجميع المديرين ورؤساء الأقسام،

تحجّجوا بزحام المراجعين وتكدس الأعمال التي تتطلب بقاءهم طوال وقت العمل على كراسيهم، الأربعة الأيام الأولى من الأسبوع، ويوم الخميس صعب جدا، نصف وقت «الدوام» نحو «البلد»

متى سيجدون الوقت للتبرع بالدم أصلا؟!

قال مالان، بسخرية الواثق من مكانه ومكانته في مكتب المسؤول الكبير، لعلّ أحدهم يسمعه: «اليوم وجدوا الوقت»!.

شاع على أسماع المنسقات ذات القول: «قبل أن يخرج من مكتبه أبلغيني، واحجزي سريرا يكون من الأفضل قريبا منه»، وما لم تعرفه المنسقات ذلك الصوت الخفيض يتردد في صدورهم: «لو تبرعت الآن سيظن أني لم أتبرع، أريده أن يراني حينما أتبرع، أسكب دمي قطرة قطرة من أجل المحتاجين في هذا الوطن الغالي، نفديه بدمنا، هذا الذي يملأ الأكياس، مع أن أجسادنا بحاجة شديدة إليه».

مالان لا يكف عن السخرية، أطلق صاروخا في مكتب اعتاد سماع أخباره، أو إشاعاته، على نحو يصدّق أكثر: «المدير خميس كيف سيتبرع؟!، سيخرج لهم من جسمه خمر» مردفا سخريته «أصلا ما يجوز أحد يتبرع بخمر».

ساله أحد الذين اتهموه لاحقا بالجنون: «والرجّال العود كيف دمه؟!»، انتبه مالان إلى الفخ، عادته يسقط في الفخاخ لكنه هذه المرة انتبه سريعا، أجاب: «مستعد يتبرع حتى بخزّان كامل يكفي مستشفى خوله مدة سنة، هذا دمه مكثف، كامل الدسم، ما خالي الدسم مثلكم يا الجوعانين»، ضحك الجالسون، والواقفون أيضا استندوا إلى طاولات لفرط الضحك، شعر

مالان بالخوف لأنهم ضحكوا، استحضر صورة المسؤول الكبير، عنقه الفخم، الضاغطة على بقية جسده كأنها امتداد لفخامة تتشابه مع جسده ومكتبه وسيارته، وملابس منسقته.

لم ينتبه مالان جيدا إلى من قال «يمكن لون دمه ثلاثة ألوان، مثل لون العلم» غامزا إلى الوطنية التي يتحدث عنها المسؤول الكبير ليل نهار، لو انتبه مالان إلى مصدرها لوصلت إلى المكتب الفخم فورا..

«إذا تريدني أتبرع عنك أنا تحت الأمر»، التقط مالان آخر كلمات المنسقة «المحسودة» تقولها بنعومة مريبة للمسؤول الكبير، «دمك غالٍ، محظوظ الذي يناله»، لكنه أجابها بكلمات قلائل «الوطن يستحق منا التضحية بكل غال ورخيص»، ولأن مالان لا يثق بمسؤولي بلاده، ككثيرين تسمع أصواتهم حتى الجدران، كرر في سره ذات الكلمة التي سمعها من مكتب ما «والوطن ضحّى من أجلكم فأخذتم الغالي والرخيص».

وحدة التبرع بالدم جهزت سريرا نظيفا ومرتّبا باهتمام على مفردة من أربعة أسرّة أخرى، الصحيفة الرسمية أرسلت محررا ومصورا، لم تكتف كعادتها بخبر دائرة الإعلام، الحدث أكبر من كل ما سواه، للمرة الأولى يتبرع هذا المسؤول الكبير بدمه، ولم تعرف وسائل الإعلام «المقروءة والمرئية والمسموعة» ما يشبه هذا الحدث، وعندما انفتح المكتب الكبير على خروج جسد ضخم منه كانت الأسرّة يتنازع عليها بين مديري العموم والمديرين ورؤساء الأقسام، ظن المسؤول أنه المشهد الدائم للرغبة في التبرع بالدم، شعر بفرح داخلي يتسرب كالدم داخل أوردته وشرايينه، الجميع يتسابقون

للتبرع، ربما امتلأت «مواعين» فريق بنك الدم، سيصل، ويشكرونه، خجلين، ومرتبكين، لأنه «نوى» لكن لا مكان لدمه اليوم، مئات الموظفين وعشرات من المسؤولين، كبارهم وصغارهم، تبرعوا منذ الصباح، لا حاجة إذن لتبرعه.

حدثته نفسه بما لا يحصى، يريد صورة على الأقل حيث يتمدد على السرير، يكاد يقول للفتاة التي تمسك بيده تقيس النبض وتأخذ العينة أن ذلك يكفي، لقد لمعت الفلاشات كثيرا، وابتسم في وجه عدسة التلفزيون، لكنها لا تكفّ عن مضيّها في غرس الإبرة في ساعد يده، لتكون شاهدة عيان على مشهد تاريخي، قال أحدهم مهمهمًا «يا بختها» وحسده آخر «يا بخته»، بينما غمز أحدهم زميله في آخر الجموع «غابت».

جميع الأعين تراقب المسؤول المتأنق كعادته يتمدد على السرير؛ يحافظ على هدوئه مع شكّة الإبرة تنغرس في يده، وابتسم لعدسات آلات التصوير، أطال الابتسام، والموظفون يراقبون تواضع كبيرهم الذي يضحّي بدمه..

تفرّس مالان ناقلا بصره بسرعة بين عشرات الأعين التي استطاعت أن تصل، بين الزحام، إلى مبتغاها، كأنّ مالان يرى في انعكاساتها لون الدم الذي يتخيلونه خارجا من جسد لا يشبه أجسادهم، مالان يتخيلهم، أو واقع في ذات التخيّل أن الدم مختلف أيضا، لونه، كثافته، وهناك محظوظ سيجري في جسده.

ومضت الساعات، الأعين تتنقل، وتتساءل، وتذهب بها الظنون مذاهب شتى، وهم ينتظرون، لم تتحرك في الأنبوب قطرة دم.

قفز مالان، قفزة لم يتوقعها أحد، الدم شفّاف، الله أكبر، الله أكبر، لا يستطيع أحد أن يراه.. وكان يكرر «الله أكبر»، خرج بقية الموظفين يظنونه موعد الصلاة، وأن الأذان هذه المرة قادم من حيث يرقد المسؤول الكبير يتبرع بدم، لم يره أحد، لكن حاولوا تصديق مالان، دم لا لون له ولا طعم ولا رائحة، إنها لمعجزة!.

قصص قصيرة جدًا

غفوة

لم ينس مراقبة فوران القهوة على موقد النار لكنه غفا..

لم ينم جيدا في الباص الضاج بصراخ الموظفين منذ مروره عليه قبل صلاة الفجر، وبّخه المدير العام عن تأخره يوميا، وهو يكرر العذر: "الباص"، لا شيء غير الباص والزحمة، مائة و١٢ كيلو مترًا على وجه التحديد، كما يراها مكتوبة على دوّار الشارع في بلاد تبعده عن مسقط.

لم ينس طلب المدير العام لكن القهوة على الموقد، وهو قد غفا، مستعيدا مباراة برشلونة وريال مدريد التي انتهت ما يقارب الثانية فجرا، كيف لا يتابعها ويطيق التحسر على حديث زملائه، صغار الموظفين وكبارهم، عامل المطبخ الذي لا يعرف ميسي ولا نيمار، ولا يشجع رونالدو؟!.

لم ينس القهوة لكنها غادرت آنيتها، أخذت مسالكها على الرّخام اللامع صوب الرجل الذي غفا، وغافله النسيان، بيد يمسك بالهاتف حيث صوت المدير يغلي غضبا، بينما آنية القهوة لم تعد تغلي، ويد أخرى تنفض الاحتراق عنها، تحاول نزع كمّ الدشداشة عنها، وانفجار القهر المرّ داخله حالما وقع الهاتف بالصوت الذي.. يغلي.

خنجران

مسح بعينين شمعيتين المجلس المتسع، والصفوف التي تمتلئ من جانب لتنقص في آخر، الرجال المتزنرون خناجر تظهر وجاهتهم، وخلفهم الأقل مكانة، تحسّس خنجره الأنيق، الخنجر الذي انغرس في أكباد لم يعد يذكرها، ولا يريد، الخنجر لا يتأنق خارجا قابضته من البشت هذه المرة، نسي، أو تناسى، وبعد أن خرج من المنصب الحكومي، أين وضع بشته المفضّل، دون عشرات أخرى تصطف بلا عناية في دولاب خشبي ينتمي إلى أيام مجيدة، ، ربما لا يريد أن يراه، كما لا يحب استعادة صورته باللباس الرسمي، الشالواني، المخصص للمهمّات الخارجية، وتجنّب النظر إلى الأبواب، حيث المكان المخصص لزرع اسمه، مكتب معالي الشيخ الوزير الموقّر.

في تكاثر الوجوه مال إلى عزلته أكثر، وتضاءل، قاوم، قدر مستطاعه، وبدا يستكين قليلا، لولا أن هبّت ريح حرّكت قلوبا لا تحصى داخل المجلس العامر بالرجال المصطفّين للعزاء، أعينها للداخل الجديد، همسات ضعفاء البصر والبصيرة تتساءل عن الداخل، وجهه ليس بغريب، وقد أداروا النظر عن الوجه المألوف الذي يتحسس خنجره في كل مرة، ولا يتذكر البشت المخلوع.

نظر إليه من بعيد، من الدوائر التي تتحلق حوله مستقبلة ببشاشة لا تليق بمجلس عزاء، عرفه فتحسّس الخنجر أكثر، كبد نالته طعنة ذات يوم، لكن معالي الوزير وهو يمرق من بين الهابّين لاستقباله ألقى بنظرة على الواقفين أمام كراسيهم، حينما رآه أخذ خطواته إليه، صافحه بحرارة، وقالت الأعين ما عجزت القبضتان على الخنجرين أن تشيا به.

فراغات

كان بوسعه أن يتقدم خطوة إليها..

كان بوسعها أيضا فعل ذلك، نصف خطوة ربما تكون كافية، الفراغ بين الجسدين المرتعشين بغضب ليس بذلك الاتساع.. قلباهما بقيا على أمل أن يقوم أحدهما بشيء ما.

يؤمن أنها لن تفعلها، كما تؤمن، هي، أيضا، بعجزه التام عن خطو صغير خسرت الرهانات عليه أكثر من عشر سنوات، قاوما فيها، معا، ما لا يحصى من مكابدات تكاثر الفراغات بينهما.

في مرحلة الخطوبة كانت باقات الورد بقدرة عالية على ملء الفراغات، وعندما تتيبس الغصون الخضراء بما تحمله من أوراق وألوان متعددة بجمالية التنسيق تنكشف الفراغات مرة أخرى، باتساع مقلق، كان الأمر يحتاج حينها إلى ورد وهدايا، المزيد منه، دائما.

كان يمكنها أن تفعلها، لولا أن الفراغ أصبح بعمق واد سحيق، ولم يكن بوسعه أن يحاول، المرأة القادرة على نسيان جرحها بباقة وهدية لم تعد ذاتها تلك التي عرفها، في ذات زمن، حينما كان بوسع بضع وردات ملفوفة بعناية أن تعيدها إلى صدره، فرحة أو باكية.

محقق

لم يسأله: ماذا رأيت؟ لكنه أجاب بعفوية: حلم.

سأله: ما هو؟، رد: لم أره جيدا.

اتهمه: انت تتستر عليه إذن، فتساءل: ماذا أفعل؟ ما هو المطلوب مني؟

قال له للمرة الأخيرة، وصمت بعدها: عد إلى النوم.

حجاب

كان يرسم وجه فتاته، الجالسة بمواجهة الموج، بحجاب ازرق كالبحر. ينفلت الإطار فتهب ريح تطير بالحجاب، يتناثر شعرها الأسود خارج حدود اللوحة..

فطن إلى أن الأسود سيبقى، رسم آخر وآخر ...

تعبت الفتاة من لطخات الأسود، ويمّمت قدميها للبحر، موجة إثر موجة، تاركة له لوحة أخرى من الأقمشة المتطايرة على امتداد الشاطئ.. ولوح خشبي فارغ، ويد لم تعد تلوّح له.

أقنعة

بكى المهرج كثيرا..
بكى المهرج طويلا.
كان القناع يخفي دمعه المتقاطر صوب العنق، باتجاه الصدر.
في آخر المشهد خلع المهرج قناعه، لكن وجهه لا يزال باكيا.
أعاد القناع مرة أخرى، ومضى خارجا، سار كثيرا، سار طويلا.. لا يعلم إلى أين، فاجأته كثرة الأقنعة على ضفتي دربه.
تحسّس وجهه، وتعجب: هل لا يزال القناع في مكانه؟!

حيرة

على مدارج القلب اتخذ طريقه..
درجة درجة، سلما بعد آخر.
يا لهذا القلب ما أوسعه!
أخبرها أن ذلك قلبه، وأنها ستبقى وحدها تتخذ تلك المدارج.
باغتته بالسؤال: صعودا أو هبوطا؟!

عبث

عبث معها ذات مرة، وافترقا.

كرر العبث مع أخريات، وظل يمارس فعل الافتراق.

لم يكتشف إلا متأخرا جدا، أن الحياة كانت تعبث به (وليس معه) مرات لا تحصى، أكثر من مرات عبثه معهن.

مرارة

مضغ السؤال في فمه، بلغت نكهته أعمق نقطة في حلقه.
شعر بالغثيان.
وحين تقيأ، اكتشف أن الإجابة تخرج صفراء مقرفة، كأنها تصعد من مرارته، مع أن السؤال بقي في الحلق، لم يتجاوزه.

عسر

حين أحبها اكتشف أنه ولد من جديد..
أعجبته فكرة الميلاد الجديد، وظل يكررها.
مع واحدة عرف كيف يمكن أن يحدث عسر في الولادة.. عسر مميت.

ليلى

خرجت من بيتها.. مبتسمة.

افترسها الذئب، راضية، وقالت له: أحبك.

عادت إلى البيت مدارية البقع الحمراء الداكنة كي لا تقلق جدتها من رؤية الدم، قالت لجدتها: لم يأكلني الذئب يا جدتي، وسأخرج في الليلة التالية مرة أخرى، وقالت في سرها: ما ألذ افتراسه.

استعادة

السيارة الفخمة قريبة (جدا) من باب المكتب الفاخر... يفصلهما مكتب منسقين ومنسقات، رأى صورته في الصحيفة المنبسطة على سطح الطاولة الراقي، باغتته ذكرى اجتهد في مسحها حد الإنهاك، استعادت ذاكرته حفلة البصق في شقة بائسة.. ليلتها بصقوا كثيرا.. بصقوا طويلا على صور المسؤولين المنشورة في صحيفة محلية، كان القهر يمزق صدره اكثر من لسعة الشراب في كاسه.

أحس بوخزة قهر اخرى، شاعرا بلزوجة بصقة تصفع وجهه من رفاق الامس.

ظل

يوم أن عرف الخوف طارده ظله، لم تفده سرعته في تفادي هذا الخيال الأسود الراكض وراءه، فجأة استدار، وكان الظل يركض أمامه..

تبيّن في وقت متأخر أن ظله يرقد خانعا تحت قدميه.. كان فرحا متلذّذا يدوس على ظله، كراقص أغوته موسيقى تهز بدنه.. مرتعشا بموجات كهربائية تصعقة.

.. وظله كان يرقص معه.

حواف

على الدروب يغذّ السير، تجرحه الحواف، يشرب ألمه بغصّة متناهية الاحتمال، وكانت الحواف تشرف دمه.

يوم أن مات خلت شرايينه من الدم، بينما الحواف تتمسك بقدميه كأنها قطعة منها..

اجتهد مغسّلوه في إزالة بقايا الدم المتيبس، كأنهم يزيلون القدمين السائرتين عمرا على حواف الفراغ.

عسكر وحرامية

اختلف الممثلون على الخشبة كيف يوزعون الأدوار.. بعضهم يريد دور العسكر وآخرون الحرامية، وكان المخرج صامتا، يراقب المشهد بغموض تام.

صاح أحدهم: لماذا لا نقوم جميعا بدور العسكر؟

سأله أحدهم: ومن يقوم بدور الحرامية؟!

أجابهم: نحن (جميعا) أيضا؛ جميعنا عسكر.. جميعنا حرامية.

كرسي

وجدوه متيبّسا على الكرسي، مات كما يليق بموظف كبير المكانة، وعندما أرادوا حمله عجزوا عن فك قبضة أصابعه عن الكرسي..

حاولوا طوال ذلك النهار؛ وساعات من الليل؛ قال لهم نائبه، وقد اتخذ قرارا حاسما: اذهبوا إلى بيوتكم وسأتصرف.

وفي اليوم التالي لم يجد مغسّل الموتى أصابع في يد الفقيد الراحل..

أما في الوزارة فكان النائب يلفّها في صفحات النعي، ويرميها إلى سلة النفايات، واضعا قبضته في ذات مكان القبضة الأولى.

عيد مرهون

أحس بخفّة المصر على رأسه، كرّر لزوجته القول انه للمرة الأولى يشعر بخفة كهذه بعد اعتياده على «المصار بو ثلاثة ريالات».. قال له البائع البنجالي ان المصر نصفه ترمه ونصفه شاتوش، نقده ثلاثين ريالا بعد جدال وفصال ورجاء.

حدثتــه نفسه ان يذهب لسبلة الشيخ ضمن المهنئين بالعيد السعيد، يصافح بكلتا يــديه وعينيه صوب الرؤوس التي حملت تيجانها القماشية الملونة.

لغرض في نفسه فتح موضوع غلاء المصار، نطق احدهم برقم جعل مرهون يشعر انه لم يعد يرتدي شيئا، تحسس دشداشته ليتأكد انها مكانها.

غيابات

لم يتغير شيء يا صديقي.. لم يتغير شيء.

الأخبار كما كنت تقرؤها، والرحيل هو الرحيل.

غادرنا أهل وجيران وأصدقاء، تبعوك إلى حيث ترقد، وضعفت ذاكرتي عن تذكر الراحلين.

نسيت أخبرك شيئا.. الشيء الوحيد الذي لا يضعف بتكراره اللحظي هو وجع غيابك، كأنك رحلت.. للتو، وكأن شفتيّ لا تزالان تقبّلان جبينك بيقين الموقن أنها القبلة الأخيرة.

إحساس

لا يحس بها، كما كان، بدءا من يوم أن التقاها على شاشة حاسوبه.. واشتعلت الكلمات بحساسية مفرطة في العشق.

كتمت خيبتها، ولم تفض بها إلى أحد من أصحاب المربعات المتكاثرة على صفحة المحادثة على شاشة حاسوبها، وعلى الطرف الآخر كان يجرب إحساسا جديدا في واحد من مربعات توزعت على الشاشة أمامه.

صبر

بحثوا عن المعاملة طويلا.. على الطاولات، داخل الملفات، قال أحدهم: لم يبق لنا من أمل على وجودها هنا سوى مكتب المدير العام، وهو في إجازة، قال آخر: إلى أن يرجع من الحج بإذن الله، قال ثالث: يا رجل، صبرت سنتين، الا تستطيع الصبر اسبوعين؟!

ترك المكان، يفكر في معاملة المسجد الذي يريده لحارتهم.

دم

الخرقة القماشية عطشى لدم داكن متخثر..

والذكورة في اندفاعها تشتهي رائحة الدم من الغشاء الممزق.

تمزّق أملها فوق احتمالها، بكت، توسلت، ارتعدت كورقة مبللة تتقاذفها ريح شتوية في يوم ماطر.

لكنه يفتش عن الدم، يجتاز سيفه المدينة يجرح طزاجة فجرها.

.. وكانت قطرات تهبط من حواف قلبها، ترتجف، دمها أكثر دكانة وتخثرا مما ينتظره الهائج بحثا عن بقع يرفع بها راية شرفه.

علبة ألوان

ينهض.. ويجد علبة ألوان أمام بابه. يرسم عصفورا على الجدار.. في اليوم التالي يجد علبة الالوان ولا يجد العصفور.. يجرب يرسم فراشة.. ثم لا يجدها.

جرب أن يرسم قلبه.. لكنه لم يجد علبة الالوان أمام بابه.. ووجد القلب ملقى في الطريق تكنسه امرأة خيّل إليه أنه يعرفها..

بدت على البعد تحمل في يدها علبة .. لا لون لها.

حيرة

عندما استدعوه للمرة الأولى أخذوا منه قلمه..

وفي المرة الثانية سحبوا منه أصابعه.

وفي مرات لاحقة احتاروا كيف فقد عقله قبل أن يأخذوه منه.

الحكيم

يكررون عليه أنك حكيم، وأنك روح لا نتصور المكان بدونها..

ينادونه: يا حكيمنا.. ويكبر طاووس في عمقه.

في كل عام يهبهم هداياه، وكلما كبرت الكلمات من أفواههم كبرت الهدايا.

على الطرف الآخر كانت الملفات تنتظر توقيعه، ومعها وعود بأن الشركة ستتجاوز، بحكمته الباهرة تحت شمس عمر مديد، خسائرها الضخمة في المستقبل.

وإن تأخر كثيرا، سيأتي لا محالة ذلك المستقبل.. مهما أفلت شمس الحكمة.